الفصل الثاني

مصادر مقاصد

رسائل النور ومميّزاتها

أولاً: مصادر التعريف بمقاصد رسائل النور

تستشف رسائل النور مقاصدها ومضمون تلك المقاصد من المصادر الإسلامية المعتمدة في فنون المعارف الإسلامية عموما، فكانت عناية بديع الزمان بالوحيين (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) جليّة واضحة باعتبارهما مصدرين رئيسين للمعارف الإسلامية عموما والمقاصد على الخصوص، لهذا بوّأ الوحيين الصدارة تأسيسا للمقاصد وبيانها وتمحيصها، واستأنس في تأكيد ذلك الأمر بالواقع الكوني والبشري المستشف من تاريخ العالم والإنسانية.

١) المصدر الأول: القرآن الكريم

يعدّ القرآن الكريم كتاب المسلمين الأول، فهو مصدر معارفهم الدينية، يعرّفهم بربّهم ونبيّهم والمعاد والعدالة، وقد عبّر عن تلك الحقائق بالعبارات الواضحة البيّنة، عبارات وألفاظ لا تحتمل التأويل أيّدتها إشارات كثيرة.

أخبر القرآن الكريم بتلك المقاصد بصريح اللفظ وبأبيَن الأساليب، فهو "مثلما أجرى من بحر علومه، علومَ الشريعة المتعددة الوفيرة، وعلومَ الحقيقة المتنوعة الغزيرة، وعلومَ الطريقةِ المختلفة غير المحدودة، فإنّه أجرى كذلك من ذلك البحر بسخاء وانتظام، الحكمة الحقيقية لدائرة الممكنات، والعلومَ الحقيقية لدائرة الوجوب والمعارف الغامضة لدائرة الآخرة."[1] وكل ذلك تعبير عن المقاصد بصريح العبارة،

---

١. الكلمات ٤٥٧

ذلك أنّ بيان علوم الشريعة والحقيقة يكون مشفوعا ببيان مقاصدها التي يشهد لها الانتظام بما ييسّر لها الانخراط في سلك خدمة الإنسان.

يمثّل القرآن الكريم حسب تعبير رسائل النور وجوها متعددة للخدمة المعرفية والعقدية والفكرية والتربوية، فيظهر أنّها متكثّرة ومنسجمة يظهر فيها التكامل والشمول، نلخصها من زاوية وظيفية في المجملات الآتية:

أ. الناحية المعرفية ببعدَيها المعرفي والتربوي الإنساني

يمثّل القرآن الكريم مصدرا رئيسا لمعارف مخصوصة، معارف لها بعدها المعرفي والإنساني، بحيث يظهر المضمون الإنساني المطلوب في صيغته زيادة إلى مضمونه، ويتجلى فيما يأتي:

– الناحية المعرفية ذات البعد الإنساني:

نحاول في هذا السياق الاقتباس من أقوال الأستاذ النورسي، ونعرضها في شكل بنود مركّزة، وإليك بيان ذلك:

- يمثّل الكتاب الكريم الترجمةُ الأزلية لكتاب الكائنات الكبير..
- يمثّل الترجمانُ الأبدي لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية..
- يعدّ مفسّر كتاب عالَم الغيب والشهادة..
- إنّه كشّافٌ لمخفيات الكنوز المعنوية للأسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض..
- الكتاب المسطور مفتاح لحقائق الشؤون المضمَرة في سطور الحادثات..
- إنّه لسان عالَم الغيب في عالم الشهادة..
- خزينةٌ للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة.

- القرآن الكريم شمسُ عالم الإسلام المعنوي وأساسُه وهندسته..
- الوحي خريطةٌ مقدسةٌ للعوالم الأخروية..
- إنّه القولُ الشارح والتفسيرُ الواضح والبرهانُ القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه..

– الناحية التربوية ذات البعد الإنساني:

لا يتوقّف البعد عند الناحية التربوية، بل يجاوزها إلى الناحية التربوية ذات البعد الإنساني، وتحقق ذلك الأمر بتوزّعها على كل ميادين الفعل الإنساني، ولا يمكن الخلوص إلى تلك النتائج إلاّ إذا استصحب المتعامل معه الميزات الآتية:

- الكتاب الكريم هو المربي لهذا العالم الإنساني..
- يمثّل ماء وضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلام..
- القرآن الكريم ليس مصدر الحكمة فحسب، بل هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر..
- يعد الكتاب الكريم المرشد المهدي إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة..

ب. الناحية المعرفية والتربوية الخاصة بالإنسان

يتجاوز القصد مجرد إثبات وتثبيت البعد الإنساني المتجلي في بعديه المعرفي والتربوي، إنّه سعي إلى تقرير تلك الحقائق وتمكينها من قلب الإنسان نفسه، إنّه لا يمكن أن يدفع إلى تحقيق تلك الأبعاد الإنسانية ما لم يكن هو نفسه مشبعا بتلك الميزات، والتشبّع بتلك الميزات يفرض معرفتها وهذا يوجب التعامل مع القرآن الكريم بطريقة مخصوصة، فهو ليس مجرّد كتاب، بل هو كتاب رب العالمين، والتسليم بهذا يفرض الإقرار بالحقائق الآتية:

- يمثّل الكتاب الكريم بالنسبة للإنسان: كتاب شريعةٍ.

- القرآن الكريم هو كتابُ حكمةٍ وليس مجرد مصدر للحكمة.
- القرآن العظيم بيّن من مضمونه وأسمائه أنّه كتابُ دعاءٍ وعبوديةٍ، كتابُ أمرٍ ودعوة، كتابُ ذكرٍ، كتابُ فكرٍ.. إنّه كتاب الصلة بين الإنسان وربه.
- إنّه الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكلّ الكتب التي تحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية.
- يتميّز القرآن العظيم بموافقته لمختلف المشارب، فأبرز لمشرَب كلِّ واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كلِّ واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرَب وتنويره، ولمساقِ ذلك المسلك وتصويره.
- القرآن الكريم كتاب سماوي أشبهُ ما يكون بمكتبةٍ مقدسةٍ مشحونةٍ بالكتب.[1]

ج. تعبير القرآن الكريم عن المقاصد

يعبّر القرآن الكريم عن تحقيق مقاصده بأساليب تربوية بديعة، فيعبّر عن مقصد الحشر بأمثلة واقعية جزئية معيشة، فيصرّح "أنّ الذي يبعث أجساد الأحياء قاطبة من غير شيء كأنّها أفراد جيش ضخم بكمال الانتظام وبميزان الحكمة، ويجمع ذرات تلك الأجساد ولطائفها ويحفظها بأمر"كن فيكون" في كل قرن، بل في كل ربيع، على وجه الأرض كافة، ويوجِد مئات الألوف من أمثالها من أنواع ذوي الحياة. إنّ القدير العليم الذي يفعل هذا هل يمكن أن يستبعد منه جمع الذرات الأساسية والأجزاء الأصلية المتعارفة تحت نظام الجسد كأنها أفراد جيش منظم... إن استبعاد هذا من ذلكم القدير العليم لا محالة جنون!"[2].

---

١. انظر الكلمات ٤٢٢

٢. الكلمات ٤٤٢

كما أنّ ذكر القرآن الكريم الأسماء الحسنى تعبير عن المقاصد بأساليب بديعة ذلك أنّ الاسم يدل لفظا على متضمّنات المسمى من الناحية اللغوية المعبّرة عن مقاصد متوخاة من حقيقة تلك الأسماء، فكل اسم من الأسماء الحسنى يمثّل مظهرا من مظاهر تلك المقاصد المعبّرة عن مختلف وظائفها.

فالقرآن الكريم "هو كلام الله بوصفه ربّ العالمين، وهو أمر الله بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السموات والأرض، وهو مكالمةٌ سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطاب أزلي باسم السلطنة الإلهية الشاملة العظمى، وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني النابع من رحمته الواسعة المحيطة بكلّ شيء، وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية – إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات – وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة، نازلٌ من محيط الاسم الأعظم ينظر إلى ما أحاط به العرش الأعظم. ومن هذا السر أُطلق على القرآن الكريم ويطلق عليه دوماً ما يستحقه من اسم وهو: "كلام الله". وتأتي بعد القرآن الكريم الكتب المقدسة لسائر الأنبياء عليهم السلام وصحفهم. أما سائر الكلمات الإلهية التي لا تنفد، فمنها ما هو مكالمة في صورة إلهامٍ نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئي، وبتجلٍ خاص لاسم خصوصي، وبربوبية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية. فإلهامات المَلَك والبشر والحيوانات مختلفة جداً من حيث الكلية والخصوصية."[1]

ولوضوح المقاصد في القرآن الكريم استغرب أولئك الذين رموا إلى وضع مقاصد للإنسان أو اكتشافها من خارج الوحيين (الكتاب والسنّة)، ذلك أنّهم لم يوفّقوا على الإطلاق، فأريد صرف جهود الإنسان في أبعاد غير إنسانية حدّدها تلك المقاصد غير الإنسانية (المقاصد التي وضعها الإنسان لبني جلدته

---

١. الكلمات ٤٢٣

أو..)، فتجاوز الأمر حدود المقاصد المحددة بالوحيين.

والغفلة عن تلك المقاصد في فهم الكون أو التعامل معه لا يختلف عن الغفلة عن مقاصد القرآن الكريم حين التعامل معه، فالبعد عن مقاصده في فهمه أو تفسيره تضييع لمقاصده الإنسانية المطلوبة من جهة وغفلة عن مضمونه من جهة أخرى، من ذلك أنّ بعضهم صرف طاقته في غير المطلوب، فانتهى به الجهد إلى الغفلة عن الميزات.

ولعل من أبيَن أمثلة القضية المشار إليها أعلاه، سعيُ بعض الظاهريين إلى تفسير القرآن الكريم... فطبّقوا منقولَه على بعض الإسرائيليات، وليس بعيدا عنه جهد أولئك الذين حاولوا التوفيق بين قسم من معقوله والفلسفة، بناء على ما رأوا من شموله على المنقول والمعقول.

فبدلاً من أن يستخرج الفريقان المقاصد من عين الكتاب والسنة، حاولوا تكييف نص القرآن الكريم مع الثقافة الوافدة، فمن ذلك سعيُ طائفة إلى إثبات علاقة بين النقليات الصادقة وبعض الإسرائيليات المحرّفة، ومنه أيضا سعي طائفة ثانية إلى إثبات علاقة بين العقليات[1] الحقيقية – التي دلّت عليها نصوص الوحي – والفلسفة الموهومة المموّهة، ظن الفريقان أنّ هذه المطابقة والمشابهة تفسيرٌ لمعاني الكتاب والسنة وبيان لمقاصدهما[2]، وفي ذلك اقصر طرق التبديل وأس أساس البدع الشائعة المنتشرة في الخلق.

ويعد العمل السابق مخالفا لما اتّفقت عليه كلمة جميع أهل الاختصاص والشهود وجميع أهل الذوق والكشف من العلماء المدققين والأولياء الصالحين،

---

١. العقلية: يراد بها ما كان موافقا لأحكام العقل الفطري السنني، أي لا يراد بها العقلانية، تلك التي تجعل للعقل سلطانا في وضع العقائد.

٢. انظر صيقل الإسلام ٣٥

إذ هم متفقون على أنّ القرآن الكريم زاد طريق أبد الآباد، وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورها وبُراقها ليس إلاّ امتثال أوامر القرآن الكريم واجتناب نواهيه، وإلاّ فلا يغني العلم والفلسفة والمهارة والحكمة شيئاً في تلك الرحلة، بل تقف جميعها منطفئة الأضواء عند باب القبر... فالكلام كلامه. فهو الحق، وهو الذي يُظهر الحقيقة وينشر آيات نور الحكمة...."[1] من منطلق ما سبق تقريره ظهرت الحكمة في عدم الملل والسأم من القرآن[2]، ليس هذا فحسب، بل جعله الله إضافة إلى ما سلف مصدر وعينا وباعث الحركية في أفعالنا وإليه يعود بعث المضامين الاجتماعية للإيمان، وهو مؤسس مقاصد ذات أبعاد إنسانية، هدفه الإنسان وهو وسيلتها الرئيسة.

٢) المصدر الثاني: السنّة المطهّرة والسيرة الشريفة

يعرّف النبي ﷺ بالمقاصد، إذ أنّه "أكرم دالّ على جمالٍ في كمال مطلق لخالق العالم وأفضل معرّف لبّى إرادة الله سبحانه في إظهار الجمال والكمال والشمول بوساطة مبعوث كما تقتضيه الحكمة والحقيقة."[3] وهو "أجلى مرآة وأصفاها لعكس محاسن جمال مالك العالم ولطائف حُسنه المنزّه - كما تشير إليه آثاره البديعة - وهو أفضل مَن أحبَّه وحبَّبه، فلبّى إرادته سبحانه في رؤية ذلك الجمال المقدس وإرادته بمقتضى الحقيقة والحكمة."[4] "فمثل هذا النبي الكريم ﷺ الذي يضاف إلى كفّة حسناته في الميزان مثل ما قامت به أمّتُه من حسنات بسر "السبب كالفاعل"، والذي تضاف إلى كمالاته المعنوية الصلوات

---

١. الكلمات ٢٩-٣٠

٢. الكلمات ٤٣٧

٣. الكلمات ٦٩٠

٤. الكلمات ٦٩٠

التي تؤدّيها الأمّة جميعاً، والذي يُفاض عليه من الرحمة الإلهية ومحبتها ما لا يحدهما حدود فضلاً عما يناله من ثمرات ما أدّاه من مهمة رسالته من ثواب معنوي عظيم.. نعم، فمثل هذا النبي العظيم ﷺ لا ريب أن ذهابه إلى الجنة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى العرش الأعظم، فكان قاب قوسين أو أدنى، أنما هو عين الحق، وذات الحقيقة ومحض الحكمة."[1] "وأنّه عليه الصلاة والسلام هو كذلك – بالبداهة – أكمل مَن بيّن المقاصد الإلهية بالقرآن الكريم وأحسن مَن وضح السبيل إلى مرضاة رب العالمين، فلبّى إرادته سبحانه في تعريف ما يريده من ذوي الشعور وما يرضاه لهم بوساطة مبعوث، بعدما عرّف نفسه لهم بجميع مصنوعاته البديعة وحببها إليهم بما أسبغ عليهم من نعَمه الغالية."[2]

مميّزات مقاصد القرآن والسنّة المطهّرة

أ. أعلى مقام الكلمات

تعبّر المقاصد عن أعلى مقام الكلمات، كما قال بديع الزمان "وهكذا فإن منح القرآنَ الكريم أعلى مقام من بين الكلمات جميعاً، تلك الكلمات التي لا تحدها حدود"، ويرجع ذلك إلى ما يأتي:

- نزول القرآن من الاسم الأعظم ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى.
- كلام الله، بوصفه رب العالمين.
- أمره تعالى بوصفه إله الموجودات.
- خطابُه بوصفه خالق السماوات والأرض.

---

١. الكلمات ٦٩٢

٢. المكتوبات ٢٧٨

- مكالمةٌ سامية بصفة الربوبية المطلقة.
- خطابُه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى.
- سجلُ الالتفات والتكريم الرحماني نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء.
- مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية، إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات.
- الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة.[1]

يستشف مما سلف تميّز كلام الله عن سائر أنواع الكلام دقّة ومضمونا، فـ"شاهد ثروة القرآن الطائلة وغناه الواسع في معرفة الله في ميدان العلم والحكمة.. وإفلاس الفلسفة وفقرها المدقع في دروس العبرة والعلم بمعرفة الصانع الجليل."[2]

ب. التناسب والتسلسل

يتميّز عرض المقاصد في القرآن الكريم والسنّة المطهّرة بالتسلسل والتناسب، "فإنّ جميع الآيات القرآنية يتلألأ عليها هذا الانتظام والتناسب والحسن، فيظهر في المقصد الواحد كظهوره في مجموع المقاصد نفسها أصولا وفروعا، إلا أنّها قد تتداخل وتتسلسل، وتصبح توابع، كلّ منها مقارنة مع الأخرى دون اختلاط. وهذا يوجب الحذر والانتباه. لأن النظرة العابرة كثيراً ما تزلّ في هذه المواضع."[3]

تداخل وتسلسل وتناسب المقاصد في القرآن الكريم يؤسّس لدستور "التعاون" الجاري الظاهر "ابتداءً من جري الشمس والقمر، وتعاقب الليل

---

١. الكلمات ١٤٧

٢. الكلمات ١٥١

٣. صيقل الإسلام ١٠٢

والنهار وترادف الشتاء والصيف.. إلى إمداد النباتات للحيوانات الجائعة، وإلى سعي الحيوانات لمساعدة الإنسان الضعيف المكرم، بل إلى وصول المواد الغذائية على جناح السرعة لإغاثة الأطفال النحاف، وإمداد الفواكه اللطيفة. بل إلى خدمة ذرات الطعام لحاجة حجيرات الجسم... كل هذه الحركات الجارية وفق دستور "التعاون" تُري لمن لم يفقد بصيرته كلّياً إنّها تجري بقوة مربٍّ واحد كريم مطلق الكرم، وبأمر مدبّر واحد حكيم مطلق الحكمة".[1]

كما يظهر الكون – بجميع مكوّناته المادية والمعنوية – وفق ذلك الانتظام والتسلسل بحيث يستبعد توهّم الإسراف والعبثية في الموجودات، "إن كمال النظام والميزان في إنشاء كل موجودٍ يطرد هذا الوهم إذ النظامُ خيط نُظّم فيه الغايات المترتبة على الأجزاء الجزئية والتفاصيل الفرعية. ومن المحال أن يراعي أحدٌ كلّ غايات تفاصيل قصرٍ – بدلالة انتظام بنائه – ويترك غاية المجموع، التي بها تصير الغايات الجزئية غاياتٍ"[2]، "ويشهد لهذه المعاني إحاطة اللفظ وسعة المعنى واستيعاب الأحكام واستغراق العلم وموازنة الغايات."[3]

ويظهر التناسب في الآيات المنظورة كظهوره في الآيات المسطورة التي منها يظهر التناسب والانتظام والتسلسل في المقاصد نفسها، فلا تضارب بل تكامل وتوافق وتناسب وانتظام، بحيث يظهر أنّ لتلك المقاصد في انتظامها مقاصد تربوية ومنهجية و...زيادة إلى ما سلف بيانه.

ج. التساند بين المقاصد

تتساند المقاصد فيما بينها بشكل يخدم حقيقة متكاملة وشاملة، ويشهد هذا

---

١. الكلمات ٣٣٨

٢. المثنوي العربي النوري ٢٨٥

٣. الملاحق ١٨٤

التساند، والتعاون، والتجاوب، و...، والانتظام، الجاري بين المقاصد والمتجلي في الكون بمظاهره المادية والمعنوية، "أن مدبّراً واحداً هو الذي يديره، ومربّياً أحداً يسوق الجميع في الكون، زد عليه، فإنّ الحكمة العامة الظاهرة بداهة في خلق الأشياء البديعة وما تتضمنه من عناية تامة وما في هذه العناية من رحمة واسعة وما على هذه الرحمة من أرزاق منثورة تفي بحاجة كل ذي حياة وتعيّشه وفق حاجاته، كلّ ذلك ختم عظيم للتوحيد له من الظهور والوضوح ما يفهمه كلّ مَن لم تنطفئ جذوة عقله، ويراه كل من لم يُعمَ بصرُه."[1]

وتظهر تجليات التساند بين المظاهر الكونية في "لبس الكرة الأرضية حلّة قشيبة ملوّنة بألوان زاهية منسوجة بكمال الحكمة بخيوط أنواع النباتات والحيوانات التي تنوف على مائة ألف نوع الشبيهة بنوعنا الإنساني، وتكون بوسعها نسج ذلك البساط البديع المفروش على الأرض من خيوط مئات الألوف من أنواع الكائنات الحية، والتي هي في أبدع نقش وأجمله، وفضلاً عن خلق هذا البساط الرائع، وتجدّده دوماً وبحكمة تامة.

و في ذلك أظهر ردّ على المعاندين،إذ لا يتمتّعون بقدرة محيطة و لا حكمة شاملة،كما لا يستطيعون التصرّف في الكرة الأرضية التي نحن من ثمارها.

د. رعاية الفطرة والمطابقة

تتجلى في المقاصد رعاية الفطرة، ذلك أنّها تقصد خدمة الإنسان في أصل وضعها، فقد قصد في المقاصد والغايات، تحقيق الرعاية التامة في الموازنة والاطراد والمطابقة لدساتير الفطرة، والاتحاد في المقاصد والغايات، وهذا يوجب المحافظة عليها في شقيها الجزئي والكلي من زاويتي التكامل والشمول، ويحقق

---

١. الكلمات ٣٣٨.

هذا المسعى المحافظة على الميزان."[1] وبذلك تحافظ على المصالح والنتائج والغايات الجليلة.[2]

توفّر المقاصد على تلك الميزات يسوقنا إلى الحديث عن مجموعة أخرى من مواصفاتها الأساسية، وخاصة تلك التي تيسّر فهمها واستيعابها وتأثيرها.

هـ. التوزّع على النص القرآني

ييسّر الفهم والاستيعاب بالتوزّع على النص، وبذلك يجد قرّاء القرآن الكريم مقصوده (الوحي) في قراءة أقصر نصوصه، ذلك أنّه -كما قال النورسي- "لا يمكن لكلِ أحدٍ في كل وقتٍ قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحدٍ في كل وقت. فلهذا أدْرَجَ الحكيمُ الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوره، لاسيما الطويلة منها، حتى صارت كلُ سورة قرآناً صغيراً، فسهّل السبيلَ لكل أحدٍ، دون أن يَحْرُمَ أحداً، التعرّف على المقاصد، فيستوعب النص الواحد مقاصد كثيرة فترى فيها التوحيد والحشر وغيرهما".[3]

وتوزّع المقاصد على النصّ القرآني لا يختلف عن توزّع الغايات والمقاصد على عناصر الحياة المادية والمعنوية، بحيث ترى المقاصد في أقل القليل من مظاهر الكون، "انظر الآن وفي كلّ وقت إلى الينابيع والجداول والأنهار، وتأمل في تفجّرها من الأرض أو الجبال تجد أنّه لا مصادفة فيها ولا عبث قط. إذ تترتّب عليها الفوائد والمصالح التي هي آثار رحمة إلهية واضحة، أما النتائج الحاصلة منها فهي موزونة محسوبة، وكذلك ادخارها وخزنها في الجبال إنما يجري ضمن حساب دقيق، ووفق حاجات الأحياء، ومن بعد ذلك تفجيرها وإرسالها بميزان

---

١. اللمعات ٨٨٢

٢. المكتوبات ٣١٠

٣. انظر المكتوبات ٢٦٨، الكلمات ٢٦٥

هو الغاية في الحكمة.. كل ذلك دلالات وشواهد ناطقة أنّ ذلك التسخير والادخار إنّما يتمّ من لدن ربّ حكيم.. وما نراه من شدة فورانها وتفجرها من الأرض إنّما هو تَوقُها العظيم لامتثال الأوامر الربانية حال صدورها."[1]

و. تثبيت القاعدة الكلية بأمثلة جزئية

يتميّز عرض المقاصد في رسائل النور بالسعي الحثيث إلى خدمة هدف عظيم، مؤداه بيان المقاصد والتقعيد لها، وقد اتّخذ لتحقيق ذلك الهدف طريقة تكثير الأمثلة الجزئية تأسيسا وتثبيتا للقاعدة الكلية والمقصد الأصلي، وقد نسج بديع الزمان ذلك بناء على ما ورد في كتاب الله، فقد ورد عن بديع الزمان، "أنّ القرآن الكريم قد يذكر بعضاً من المقاصد الجزئية، ثم لأجل أن يحوّل تلك الجزئيات إلى قاعدة كلية، يجيل الأذهان فيها ويثبّت ذلك المقصد الجزئي ويقرّره ويؤكّده بالأسماء الحسنى التي هي قاعدة كلية "[2].

"كما بيّن القرآن الكريم المعجز البيان سبيل سعادة الدارين، ووضّح غايات خلق الكون، وما فيه من المقاصد الربانية موضحاً ما يحمله ذلك المخاطب الكريم من الإيمان السامي الواسع الذي يضمّ الحقائق الإسلامية كلّها عارضاً كل ناحية من نواحي هذا الكون الهائل ومقلّباً إياه كمن يقلب خارطة أو ساعة أمامه، معلّماً الإنسان صانعَه الخالق سبحانه من خلال أطوار الكون وتقلباته. فلا ريب ولابد أنّه لا يمكن الإتيان بمثل هذا القرآن أبداً، ولا يمكن مطلقاً أن تُنال درجة إعجازه."[3]

وقد يسّر القرآن الكريم استيعاب المقاصد الخمسة التي اعتبرها النورسي كالأنهار الجارية تحت هذه الآيات، "حتى يفور هذا بكماله في آية.. وينبع ذاك بتمامه في

---

١. الكلمات ٨٠٦

٢. الكلمات ٤٩٦

٣. الكلمات ٥٢٣

أُخرى.. ويتجلى ذلك بشَرَاشيره في ثالثة. فأدنى ترشّحٍ على السطح يومي بتماس عروق الكلمة بها. وأيضا تتسنبل هذه المعاني في آيات مسوقة لها."[1]

وتأسيس القاعدة الكلية بالأمثلة الجزئية يتضمّن العناية بجميع المخاطبين، ذلك "أنّ القرآن خطاب ودواءٌ لجميع طبقات البشر من أذكى الأذكياء إلى أغبى الأغبياء، ومن أتقى الأتقياء إلى أشقى الأشقياء، ومن الموفّقين المجدّين الفارغين من الدنيا إلى المخذولين المتهاونين المشغولين بالدنيا، والسورة منه قرآن صغير يتضمّن مقاصده الكلية، فسهّل السَبيل لكل أحد. وينادي مشوّقاً ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَل مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(سورة القمر: ١٧)"[2]

ومن مظاهر التأسيس للقاعدة الكلية بالأمثلة الجزئية العناية بجميع المكلّفين، وتتجلى في "تضمين كلِّ سورةٍ من القرآن مجمل ما في كل القرآن وسائر السور من المقاصد وأهم القصص، لأجل أن لا يحرمَ من يقرأ سورة فقط عما أُنزلَ له التنزيل، إذ في المكلفين الأمّيُ أو الغبيُّ، ومَن لا يتيسر له إلاّ قراءة سورةٍ قصيرة فقط، فمن هذه اللمعة الإعجازية تصير السورةُ قرآناً تاماً لمن قرأها.."[3]، "حتى أنّ أغلب السور المطولة والمتوسطة – التي كل منها كأنها قرآن على حدة – لا تكتفي بمقصدين أو ثلاثة من مقاصد القرآن الأربعة (وهي: التوحيد، النبوة، الحشر، العدل مع العبودية) بل كل منها يتضمن ماهية القرآن كلها، والمقاصد الأربعة معاً، أي كل منها:كتاب ذكر وإيمان وفكر، كما أنّه كتاب شريعة وحكمة وهداية. فكل سورة من تلك السُوَر تتضمن كُتباً عدة، وترشد إلى دروس مختلفة متنوعة. فتجد أنّ كل مقام – بل حتى الصحيفة الواحدة – يفتح أمام الإنسان أبواباً للإيمان يحقق بها إقرار

---

١. إشارات الإعجاز ٦١

٢. انظر المثنوي العربي ٧٠

٣. المثنوي العربي النوري ٢٠٨

مقاصد أخرى حيث إنّ القرآن يذكر ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبينه بوضوح، فيرسّخ في أعماق المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكل شيء، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والأنفس. لذا فإنّ ما يبدو من مناسبة ضعيفة، يبنى عليها مقاصد كلية فتتلاحق مناسبات وثيقة وعلاقات قويّة بتلك المناسبة الضعيفة ظاهراً، فيكون الأسلوب مطابقاً تماماً لمقتضى ذلك المقام، فتتعالى مرتبته البلاغية."[1]

ز. الإجابة عن أسئلة مكررة

وزيادة إلى ما سلف، فإنّ المقاصد في كلّياتها وجزئياتها إجابة عن أسئلة متكررة، تمثّل الأولى (الكلية) تحديدا لمقاصد أصلية تمثّل الأسس النظرية للحياة الإنسانية، وتمثّل الثانية (الجزئية) بيّنات وتفاصيل تشعّب تلك المقاصد وتجلياتها في الحياة المادية والمعنوية، حتى أنّك تجد الإجابة من غير تطويل مملّ أو تقصير مخلّ، فيكتفى أحيانا بقدر بيان نتيجة حيث تبيّنها رسائل النور بحجج وبراهين[2]، وقد استقى بديع الزمان ذلك المسلك التعليمي الهادف–الإجابة عن الأسئلة المتكررة– من القرآن الكريم الكفيل بالإجابة عن أسئلة الحياة، وأسئلة الحكمة (الفلسفة) من الكائنات: من أين؟ وبأمر مَن تأتون؟ مَن سلطانكم ودليلكم وخطيبكم؟ ما تصنعون؟ وإلى أين تصيرون؟ ولهذا فذِكرُ الكائنات في القرآن الكريم – مما سوى المقاصد – إنما هو ذكر استطرادي لبيان طريق الاستدلال على الصانع الجليل بانتظام الصنعة. نعم! الانتظام يشاهد، بل يُظهر نفسه بكل وضوح. فالصنعة المنتظمة تشهد على وجود الصانع وعلى قصده وإرادته شهادة صادقة قاطعة، إذ تتراءى في كلّ جهة من جهات الكون وتتلألأ من كل جانب، وتعرض جمال الخلق إلى أنظار الحكمة، حتى لكأنّ كل مصنوع لسان يسبّح بحكمة صانعه، كلّ

---

١. الكلمات ٥٣٣

٢. الشعاعات ٢٧٩

نـــوع يشـــهد مشـــيراً بإصبعه إلى حكمة الصـــانع.[1]

وحقق هدف الإجابة بأسلوب غناء الكلام وثروته ووسعته، فعبّر عن أصل الكلام المفيد أصل المقصد، كذلك كيفياته وهيئاته ومستتبعاته تـــشير وترمـــز وتلوح إلى لوازم الغرض وتوابعه وفروعه، فكأنّما تتراءى طبقة بعـــد طبقـــة ومقاما خلف مقام.

وكما يقال بالمثال يتّضح المقال، انتقل الأستاذ إلى ضرب الأمثلة، فيقول في أسلوب تربوي، "وإن شئت مثالا تأمّل في ﴿وَإِذَا قِيـــلَ لَهُـــمْ لاَ تُفـــسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾(سورة البقرة:١١) و﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(سورة البقرة:١٤)... علـــى الوجه المفسَّر سابقا(المذكور عليها).[2]

كما أفاد الإجابة بسلاسة الكلام المنتجة للطافته وحُلْوه هو أن تكون المعاني والحسيات المندمجة فيه ممتزجة تتّحد أو مختلفة تنتظم، لئلا تتشرب الجوانب قوّة الإفادة والغرض، بل يجذب المركزُ القوّةَ من الأطراف.. وأيضاً من السلاسة أن يتعيّن المقصد.. وأيضاً منه أن يتظاهر ملتقى الأغراض.[3]، وهكذا كان القرآن الكريم معبّرا عن تلك الأجوبة بأكمل صور البلاغة، فيبرق حـــسن الكـــلام تجاوب الهيئات وتداعي القيود وتأخذها على المقصد الأصلي، وإمداد كلٍّ بقدْرِ الطاقة للمقصد، الذي هو كمجمع الأودية أو الحوض المتشرّب من الجوانب، بأن تكون مصداقاً وتمثالاً لما قيل"[4]، وقد عبّر بديع الزمان عن تلـــك المعـــاني بإشارات عميقة وعبارات دقيقة، منها تنبيهه الذي يقول فيه: "اعلم! أنّ في كلّ

---

١. انظر الكلمات ٦٩٠، المكتوبات ٢٧٨، صيقل الإسلام٢٩.

٢. انظر إشارات الإعجاز ١٢٢

٣. انظر إشارات الإعجاز ١٢٤

٤. إشارات الإعجاز ٤٥

آية من هذه الآيات التمثيلية طبقاتٍ ومراتبَ وصوراً وأساليبَ متنوعة، كلٌّ منها – في كلٍ منها – كفيل وضامن لطائفة من الحقائق. وكما أنّك إذا أخذت قوارير من فضة وزيّنتها بذوب الذهب، ثم نقشتها بجواهرَ، ثم صيّرتها ذوات نور بإدراج "الكتريق" (الكهرباء) ترى فيها طبقات حسن وأنواعَ زينة، كذلك في كل من تلك الآيات من المقصد الأصليّ إلى الأسلوب التمثيليّ قد شرعت إشارات ومُدّت رموز إلى مقامات كأن أصل المقصد تدحرج على المراتب وأخذ من كلٍ لوناً وحصة حتى صارت تلك الكلمات من جوامع الكلمات بل من جمع الجوامع."[1]

ويتأكّد مسعى تأصيل القاعدة الكلية بالجزئيات بما حواه القرآن الكريم من قصص الأنبياء، إذ يرمي ذلك التكرار إلى تقعيد قواعد ثابتة راسية، تؤسس للمقاصد العظيمة وما يخدمها من مقاصد فرعية، بيّن هذا المعنى قول النورسي: "ومن المكررات القرآنية (قصص الأنبياء) عليهم السلام، فالحكمة في تكرار قصة موسى عليه السلام – مثلاً – التي لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة في تكرار قصص الأنبياء إنما هي لإثبات الرسالة الأحمدية وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم حجةً على أحقية الرسالة الأحمدية وصدقها، حيث لا يمكن أن ينكرها إلاّ من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكرها إذن دليل على الرسالة."[2]، وقد ذكر التكرار لوظيفة تربوية وعلمية واجتماعية جلية، ذلك أنّ "كثيراً من الناس لا يستطيعون كل حين ولا يوفقون إلى تلاوة القرآن الكريم كله، بل يكتفون بما يتيسر لهم منه. ومن هنا تبدو الحكمة واضحة في جعل كل سورة مطولة ومتوسطة بمثابة قرآن مصغر، ومن ثم تكرار القصص فيها بمثل تكرار."[3]

---

١. إشارات الإعجاز ١١٧

٢. الكلمات ٥٣٥

٣. الكلمات ٥٣٥

يفرض الخلوص إلى القاعدة الكلية ووظائفها العامة والخاصة توفّر مجموعة متكاملة من المميّزات، منها الوضوح والبساطة.

ح. الوضوح والبساطة

يفرض تحقيق الجزئيات المكررة للقاعدة الكلية الوضوح والبساطة، وهو ما سعى بديع الزمان إلى توخّيه في نصوصه، مستعينا في ذلك بنسج القرآن الكريم، فالقرآن الكريم إنما يبين بهذه الحادثة الجزئية بياناً معجزاً، دستوراً كلياً، ودرساً ضرورياً في الحكمة يحتاجه كل أحد في كل وقت."[١]

ودلالتها على المقصد بوضوح لا يختلف عن دلالة المصنوعات على الصانع "فهذه المصنوعات المنتظمة المتقنة الماثلة أمامنا فوق الأرض، وهذه التدابير الإلهية ذات الحكمة والعناية الجارية عليها هي أيضاً بعينها تجري تحت الأرض بل تتجلى فيها الحكمة الإلهية والعناية الربانية بأعجب منها حكمةً وأغرب منها انتظاماً."[٢]

ومنها أيضا "الصخور تهبط من ذرى تلك الجبال، من خشية ظهور تجليات جلالية ورهبتها، فتتناثر أجزاؤها. فقسم منها ينقلب تراباً تنشأ منه النباتات، وقسم آخر يبقى على هيئة صخور تتدحرج إلى الوديان وتكتسح السهول فيستخدمها أهلُ الأرض في كثير من الأمور النافعة -كبناء المساكن مثلاً- فضلاً عن أمورٍ وحكم مخفية ومنافع شتى، فهي في سجدة وطاعة للقدرة الإلهية وانقياد تام لدساتير الحكمة الربانية."[٣]

لا يمكن الحديث عن مقاصد وغايات غير واضحة جلية، ذلك أنّها تخدم

---

١. الكلمات ٢٧١

٢. الكلمات ٢٧٣

٣. الكلمات ٢٧٤

الإنسان، وخدمته لا تتصوّر مع غموض المقاصد أو صعوبة فهمها فضلا عن استحالة تمثّلها، لهذا "لا ريب أنّ مالك هذا الكون وربّه يخلق ما يخلق عن علمٍ ويتصرف في شؤونه عن حكمة، ويدير كل جهة عن رؤية ومشاهدة، ويربي كل شيء عن علم وبصيرة، ويدبّر الأمر قاصداً إظهار الحِكمَ والغايات والمصالح التي تتراءى من كلّ شيء."[1]

ط. تيسّر تفسير الحياة والكون

وييسّر ظهور المقاصد ووضوحها فهم الحياة والكون، لهذا فلمعرفة المقاصد وظيفة معرفية ظاهرة، إذ نلاحظ أنّ الحياة موهوبة من رزق ممنوح ومدام، وممد الحياة والرزق، هو المتكفّل بكلّ ضروراتها وحاجاتها، وهو الذي يهيئ لوازمها ومقوماتها. فالغايات السامية للحياة تعود إليه، والنتائج المهمة لها تتوجه إليه، وتسع وتسعون بالمائة من ثمراتها ونتائجها تقصده وترجع إليه[2]، "فقد وجد العقل انتظام الخلقة، ونقش الحكمة وخزائن أسرار عظيمة في هذه الأصوات اللّطيفة المنبعثة من الأشجار والحيوانات معاً، ومن أنداء الشجيرات والنسائم. وسيفهم أنّ كلّ شيء يسبّح للصانع الجليل بجهات شتى."[3]

كما يمثّل القرآن الكريم من زاوية سننية بحت، "الترجمة الأزلية للكائنات والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسّر كتاب العالم، وهو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السموات والأرض، ويمثّل مفتاح لحقائق الشؤون المضْمَرة في سطور الحادثات، كما يعدّ لسان الغيب في عالم الشهادة، وخزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات

---

١. انظر المكتوبات ١١٣

٢. انظر المكتوبات ٢٩٣

٣. الكلمات ٢٤٤

الأبدية الرحمانية، زيادة إلى كونه أساسٌ وهندسةٌ وشمسٌ لهذا العالم المعنوي الإسلامي، وكذا هو خريطة للعالم الأخروي، وقولٌ شارحٌ وتفسير واضحٌ وبرهان قاطعٌ وترجمان ساطعٌ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه، ومربٍّ للعالم الإنساني، ولهذا؛ فهو كالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية، والحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خُلِقَ البشرُ له، وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدسٍ مشحون بالكتب والرسائل. حتى انه ابرز لمشرب كل واحدٍ من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحدٍ من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة الرسائل."[1]

ويجلى تلك الترجمة المعبّرة "الحِكمَةُ العَامَّةُ في تَنْظيماتها، وَالعِنَايَةُ التَّامَّةُ في تَزيينَاتها، وَالرَّحمَةُ الوَاسِعَةُ في تَلطيفاتها، وَالأرزَاقُ وَالإعَاشَةُ الشَّامِلَةُ في تَربيَتها، والحَيَاةُ العَجيبَةُ الصَّنعَة بمَظْهَريَّتها للشُؤون الذَّاتيَّة لفَاطِرها، وَالمَحَاسنُ القَصْديَّةُ في تَحْسينَاتهَا، وَدَوَامُ تَجَلِّي الجَمَال المُنْعَكس مَعَ زَوالهَا، وَالعشْقُ الصَّادقُ في قَلْبها لمَعبُودهَا، وَالانْجذَابُ الظَّاهرُ في جَذْبَتها، وَاتِّفاقُ كُلِّ كُمَّلهَا عَلى وَحْدَة فاطِرها، وَالتَصَرُّفُ لمَصالحَ في أجزائها، وَالتَّدْبيرُ الحَكيمُ لنَباتاتها، وَالتَّربيَةُ الكَريمَةُ لحَيواناتهَا، والانتظامُ المُكَمَّلُ في تَغيُّرات أركَانها، وَالغايَاتُ الجَسيمةُ في انتظامِ كُلِّيَّتها، وَالخُدُوثُ دَفْعَة مَعَ غايَة كَمَال حُسنِ صَنْعَتها بلا احتياجٍ إلى

---

١. الكلمات ٢٦٤

مُدَّة ومَادَّة، وَالتَّشَخُّصاتُ الحَكيمَةُ مَعَ عَدَمِ تَحْديد تَرَدُّد إمْكاناتهـــا، وَقَـــضاءُ حاجاتها عَلى غَايَة كَثْرَتها وَتَنَوُّعها في أوقاتها اللاَّئقة المُناسبَة، مِنْ حَيـــثُ لا يُحتَسَبُ وَمِنْ حَيثُ لا يُشْعَرُ مَعَ قِصَرِ اَيْديها مِنْ أصغَرِ مَطالبها، وَالقُوَّةُ المُطلَقَةُ في مَعْدَنِ ضَعْفِهَا، وَالقُدْرَةُ المُطلَقَةُ في مَنَبَـــعِ عَجْزِهـــا، وَالحَيـــاةُ الظَّـــاهِرَةُ في جُمُودِها، وَالشُعُورُ المُحيطُ في جَهْلِها، وَالانتظامُ المُكَمَّلُ في تَغَيُّراتها المُـــسْتَلزِمُ لِوُجُودِ المُغَيِّرِ الغَيرِ المُتَغَيِّرِ، وَالاتِّفاقُ في تَسْبِيحَاتها كَالدوائرِ المُتَدَاخِلَةِ المُتَّحِـــدَةِ المَرْكَزِ، وَالمَقْبُولِيَّةُ في دَعَوَاتها الثَّلاث "بلسان استعدادها، وبلسان احتِيَاجَاتهـــا الفِطريَّة، وبلسان اضطِرارِها"، وَالمُناجاة وَالشُّهو داتُ وَالفُيُوضاتُ في عِباداتِهَا، وَالانتظامُ في قَدَرِيها، وَالاطْمئنَانُ بِذِكرِ فاطِرِها."[1]

ومما ييسّر الفهم أيضا "أنّ الصانع القدير باسمه "الحَكَم والحكيم" قـــد أدرج في هذا العالم ألوف العوالم المنتظمة البديعة، وبوّأ الإنسان – الذي هو أكثر من يمثّـــل الحِكَم المقصودة في الكون وأفضل مَن يظهرها – موقعَ الصدارة، وجعلـــه بمثابـــة مركز تلك العوالم ومحورها، إذ يتطلع ما فيها من حِكَم ومـــصالح إلى الإنـــسان. وجعل الرزق بمثابة المركز في دائرة حياة الإنسان، فتجد أنّ معظم الحِكَم والغايات وأغلب المصالح والفوائد – ضمن عالم الإنسان – تتوجّه إلى ذلك الرزق وتتـــضح به، لذا فإنّ تجليات اسم "الحكيم" تبدو واضحة بأبهر صورها وأسطعها من خلال مشاعر الإنسان، ومن تضاعيف مذاقات الرزق، حتى غدا كلّ علم – من مئـــات العلوم التي توصّل الإنسان إلى كشفها بما يملك من شعور– يعرِّف تجلياً واحداً من تجليات اسم "الحَكَم" في نوع من الأنواع."[2]

ويظهر تيسّر الفهم أيضا من التأسيس لرؤية "معاونة الموجـــودات بعـــضها

---

١. اللمعات ٤٨٠

٢. اللمعات ٥٣٢

للبعض الآخر وتجاوبها فيما بينها، وتساندها في الوظائف والواجبات.. مما يدل على أنّ كلّ المخلوقات تحت تربية ورعاية مُربٍّ واحد أحد. وأن الكل تحت أمر مدبر واحد أحد.. وأنّ الكلّ تحت تصرف واحد أحد.. ذلك لأن "دستور التعاون" بين الموجودات، يجري ابتداءً من الشمس، التي تهيئ بأمر الله لوازم الحياة للأحياء، ومن القمر الذي يعلمنا المواقيت، وانتهاءً إلى إمداد الضوء والهواء والماء والغذاء لذوي الحياة، وإمداد النباتات للحيوانات، وإمداد الحيوانات للإنسان، بل حتى إمداد كل عضو من أعضاء الجسم للآخر، وإمداد ذرات الغذاء لحجيرات الجسم.. فخضوع هذه الموجودات الجامدة الفاقدة للشعور وانقيادها لدستور التعاون وارتباطها معاً ارتباط تفاهم وتجاوب في منتهى الحكمة، وفي منتهى الإيثار والكرم، وجعل كل منها يسعى لإغاثة الآخر وإمداده بلوازم حياته، ويهرع لقضاء حاجياته وإسعافه، تحت ظلّ قانون الكرم وناموس الرأفة، ودستور الرحمة... كلّ ذلك يدلّ بداهة على أنّ جميعها مخلوقات مأمورات ومسخرات عاملات للواحد الأحد، الفرد الصمد، القدير المطلق القدرة، والعليم المطلق العلم، والكريم المطلق الكرم."[1]

ويسعف هذا المسلك في ملاحظة التوافق بين الصورة المادية والدور في الحياة "... فالوجود له صورة معنوية في علم الله تمثل مقدراته الحياتية، وهي تلازم الصورة المادية وتنتقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدّل تلك الصورة والمقادير في مسيرة حياته تبدّلاً يلائم الحكمة في خلقه وينسجم كلياً مع المصالح المركبة عليه، مما يدلّ بالبداهة على أنّ صور تلك الأجسام ومقاديرها تُفصَّل وتُقدَّر تقديراً معيناً في دائرة القدر الإلهي، الجليل الحكيم ذي الكمال، وتُنظَّم تلك الصور وتُنسَّق بيد

---

١. الكلمات ٧٩٢

القدرة الإلهية وتمنحها الوجود المعيّن المقدّر."[1] "تأمّل فيما يحويه جسمك وأعضاؤك أيها الإنسان من حدود متعرجة والتواءات دقيقة.. وتأمّل في فوائدها ونتائج خدماتها وشاهد كمال القدرة في كمال الحكمة."[2]

كما ترى أيضا مظاهر شعور كامل طَي جهل مطبق، كما هو في حركات كل شيء وجريان -ابتداءً من الذرات إلى المجرات- تلك الحركات المتّسمة بالشعور الكامل والانسجام التام مع نظام الكون كله، والملائمة ملاءمة تامة مع مقتضيات الحياة ومطالب الحكمة المقصودة من الوجود[3]، "إنّ ما يشاهد على سطح الأرض من انتظام واطّراد في خلق المخلوقات، وتدبير أمورها، وتجديدها باستمرار في كلّ موسم، يدلّ بالبداهة على حكمة عامة تغمر الموجودات. هذه الحكمة العامة تدلّ بالضرورة على حكيم مطلق الحكمة، إذ لا صفة دون موصوف."[4]

وهكذا يكتشف المتعلّم العاقل بالبداهة العناية والقصد في الفعل من أنواع الزينة البديعة التي تؤطر ستار الحكمة العامة الذي يتلفع الوجود به، عناية فائقة عامة، وهذه العناية تدلّ بالضرورة على خالق كريم[5]، وهذا "واضح جلي كوضوح النبات نفسه، وجميل كذلك كجمال النبات نفسه، تلك التسبيحات التي يهمس بها كل نبات في إشراق تبسّمه، عند تفتح زهره، ونضج ثمره، وتسنبل سنبله، لأنّه بالثغر الباسم لكل زهرة، وباللّسان الدقيق للسنبل المنتظم، وبكلمات البذور الموزونة، والحبوب المنسقة، يظهر (النظام) الذي يدلّ على

---

١. الكلمات ٧٩٤

٢. الكلمات ٧٩٤

٣. انظر الكلمات ٧٩٦

٤. الكلمات ٧٩٧

٥. انظر الكلمات ٧٩٧

كمال (الحكمة).."[1]، "وجمال الإتقان في الجزئيات والفرعيات، وفي النتائج والفوائد، فإنّ العناصر الكلية، والمخلوقات العظيمة التي تبدو مختلطة ومتشابكة، وتوهِمُ أنّها لعبة المصادفة، تتّخذ أيضاً أوضاعاً تتّسم بالحكمة وإتقان، رغم الاختلاط الظاهر عليها."[2]

وللدلالة على المراد – على رأي بديع الزمان – "انظر الآن إلى الينابيع والجداول والأنهار، وتأمّل في تفجرها من الأرض أو الجبال، تجد أنّه لا مصادفة فيها ولا عبث قط. إذ تترتّب عليها الفوائد والمصالح التي هي آثار رحمة إلهية واضحة، أما النتائج الحاصلة منها فهي موزونة محسوبة، وكذلك ادخارها وخزنها في الجبال إنما يجري ضمن حساب دقيق، ووفق حاجات الأحياء، ومن بعد ذلك تفجيرها وإرسالها بميزان هو الغاية في الحكمة.. كل ذلك دلالات وشواهد ناطقة أنّ ذلك التسخير والادخار إنّما يتم من لدن ربّ حكيم.. وما نراه من شدّة فورانها وتفجرها من الأرض إنّما هو تَوقُّها العظيم لامتثال الأوامر الربانية حال صدورها."[3]

ويلاحظ رغم سعة الكون وشساعته "أنّ السيارات تجري في أفلاكها سابحة مشدودة الوثاق بالشمس، مرتبطة معها بقانون إلهي، هذا القانون هو الذي يطلق عليه علماء الفلك اسم "الجاذبية".. فهي تجري بنظام دقيق دون خطأ –ولو بمقدار ثانية واحدة – وتنقاد انقياداً تاماً، وبطاعة مطلقة لهذا القانون، كانقياد المصلين المأمومين لإمامهم.. وهذا دليل وأيّ دليل –بأوسع مقياس وأعظمه– على عظمة القدرة الربانية ووحدانية الربوبية.. فإن استطعت أن تقدّر عظمة هذا الأمر بنفسك

---

١. الكلمات ٨٠٣

٢. الكلمات ٨٠٥

٣. انظر الكلمات ٨٠٦

فافعل، لترى مدى العظمة والحكمة في جعل تلك الأجرام الجامدة، وتلك الكتل الهائلة وهي بلا شعور تجري في منتهى النظام وكمال الميزان، وفي غاية الحكمة، وعلى صور متباينة، وضمن مسافات مختلفة، وبحركات متنوعة، ومن بعد ذلك تسخيرها جميعاً وِفْقَ نظام بديع رائع!"[1].

ومما يدلّل به النورسي على "أنّ سيارتنا – الأرض – هذه تُسخَّر بأمر ربَّاني، لأجل أن تنهض بخدمات جليلة، ومهامّ جسيمة خلال سيرٍ وتجوال طويل، فتدور حول الشمس لتظهر بحريها ودورانها هذا عظمة الربوبية وكبرياء الألوهية، وكمال الرحمة والحكمة. فكأنّ الأرض سفينة عظيمة لرب العالمين مشحونة بعجائب مخلوقاته سبحانه، أوهي كمسكن متجوّل لذوي الحياة والشعور من عباده، أسكنهم فيها، ويجريهم بها للنزهة والتفرج في أرجاء الفضاء".[2]

وتدلّ تلك المقاصد بمجموعها على يسر تفسير فهم الكون واستيعاب ما عليه من عناية عامة تتضمّن حِكَما لا حصر لها، وكلّ من هذه المظاهر واحدة واحدة وبمجموعها تدلّ دلالة عظيمة جداً على الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزّاق، وتدلّ على وجوب وجوده سبحانه وعلى وحدانيته وكمال ربوبيته، إذ إنّ ما في الحكمة من عناية، وما في العناية من رحمة، وما في الرحمة من إعاشة وإرزاق دلالات قاطعة وبمقياس واسع جداً على الواجب الوجود بمثل دلالة الألوان السبعة على ضوء الشمس الذي يملأ النهار نوراً. مما يشهد بقوّة على التربية المكلّلة بالحكمة البالغة الشاملة، والرحمة الواسعة، والرزق الوفير[3] وشاهد البذور المنثورة المدفونة تحت التراب، لو أمعن النظر في تمايزها أثناء نموها وتسنبلها، رغم تشابه تراكيبها. وتأمّل

---

١. الكلمات ٨٠٨

٢. الكلمات ٨٠٩

٣. انظر الكلمات ٨٠٩

في المواد المختلفة الداخلة في بنية الأشجار، وتحوّلها إلى مختلف الأشكال من الأوراق الرقيقة، والأزهار الزاهية، والثمار اللطيفة. وتأمّل في أنواع الطعام والأغذية المختلفة الداخلة في المعدة، وتمايز بعضها عن البعض، ودخول كل منها إلى العضو الذي يناسبها بل إلى الحجيرة التي تلائمها بتمايز واضح.. شاهد آثار القدرة المطلقة، من خلال الحكمة المطلقة.[1]

وقد اكتسبت رسائل النور بفعل تفاعلها الرائع مع القرآن الكريم مجموعة من الميزات، تلك الميزات التي كان لها حضور كبير في الرسائل النور مضمونا ومنهجا وأبعادا، سنحاول عرضها لاحقا بشيء من التفصيل.

٣) المصدر الثالث: الواقع الكوني والبشري

تؤكّد المصادر السابقة لمقاصد رسائل النور أنّ المنظور من آيات الله الكونية موافق كلّ الموافقة لآيات الله المسطورة، لهذا فالحديث عن المصدر الرابع متضمن فيما ذكرناه عن المصدرين السابقين (الكتاب والسنّة المطهّرة)، ذلك أنّ الواقع الكوني بشقيه (المتعلّق بعالم الأشياء، والمتعلّق بعالم الإنسان) شاهد أساسي في التأسيس للمقاصد المشار إليها، ذلك أنّها تمثّل مسرح النظر في الآفاق والأنفس، من هنا كان الواقع الكوني والبشري مسرح إثبات وتثبيت المقاصد من جهة ومصدرا يستأنس به المؤمن في تثبيت المقاصد وإثباتها من جهة أخرى، كما يمكن أن تكون مصدرا مستقلا لإثبات تلك المقاصد بالنسبة لغير المؤمن.

فكانت الآيات المسطورة تفتح العيون المعصوبة بالتدبّر والتأمّل في الآفاق والأنفس المألوفتين.[2]

---

١. انظر الكلمات ٨٠٠

٢. انظر صيقل الإسلام ٦٣

يشهد لهذا أنّ أغلب السور المطولة والمتوسطة – التي كل منها كأنها قرآن على حدة – تفتح أمام الإنسان أبوابا للإيمان ولمعرفة الله ومراتب التوحيد يحقق بها إقرار مقاصد عديدة، حيث إنّ القرآن يقرأ ما هو مسطور في كتاب الكون الكبير ويبينه بوضوح، فيرسخ في أعماق المؤمن إحاطة ربوبيته سبحانه بكل شيء، ويريه تجلياتها المهيبة في الآفاق والأنفس، لذا فإنّ ما يبدو ظاهراً من مناسبة ضعيفة، يبنى عليها مقاصد كلية.[1]

يشير إلى تلك المعاني أنّ دلائل التوحيد مستمدة أساسا من النظر في الآفاق والأنفس، ذلك أنّ دلائل الوجود قسمان: آفاقي وأنفسي، والأنفسي على قول بديع الزمان نوعان نفسي وأصولي، وكلاهما يرتكز على النظر في الواقع الكوني والبشري، فقد أشار إلى النفسي الأقرب الأوضح بقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (سورة البقرة:٢١) وإلى الأصولي المستفاد من النظر في الواقع البشري بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ﴾(سورة البقرة:٢١) [2]

ولا يتوقّف الاعتداد بالواقع الكوني والبشري عند حدّ التأسيس والتأصيل للمقاصد بل يجاوزه إلى توظيفه في دفع كلّ ما من شأنه أن يقوّض تلك المقاصد، من ذلك ما أشار إليه الأستاذ في إبطال الكفر بوصفه أهمّ ملوّثات البيئة الفطرية، إذ عمدته في إنكاره الكفر والكفران الدلائل الأنفسية وهي أطوار البشر، والدلائل الآفاقية..[3]

عمدت رسائل النور إلى النسج على وفق مسلك القرآن الكريم والسنة المطهّرة في جعل النظر في الواقع الكوني والبشري المشار إليه في أدبيات

---

١. انظر الشعاعات ٣١٠

٢. انظر إشارات الإعجاز ١٥٧

٣. انظر إشارات الإعجاز ٢٢٢ ، ٥٠

النورسي بـ"الآفاق والأنفس" مسرحا أساسيا في النظر المؤسس لمقاصد الرسائل نفسها.

قصد بديع الزمان برسائل النور "فتح طريق واسع إلى معرفة الله، وذلك بتوجّهها إلى الآفاق الكونية - كالطرق الجهرية - فضلا عن جهادها في الأنفس، حتى وكأنها عصا موسى - عليه السلام - أينما ضربتْ فجّرت الماء الزلال"[1]، فكانت نورا منبعثا من الآفاق والأنفس عاكسا لشمس معرفة الأزل[2]، مزيلا للظلمات بجميع أشكالها وأنواعها.

أ. الواقع الكوني والبشري معرّفان التوحيد

يبحث في آيات الله في أجواء الآفاق وفي أوسع الدوائر إذا به يذكُر أصغَر دائرةٍ من دوائر المخلوقات وأدق جزئيةٍ من جزئياتها، إظهاراً لطابع الأحدية بوضوح في كل شيء.[3]

"انظر أوسع الآفاق الكونية فترى أفعال تنظيم وتقدير وتزيين وتنظيف وأمثالها من الأفعال الحكيمة تبين خالقاً واحداً أحداً، بوحدتها النوعية، ليس هذا فحسب، بل حتى أكثر الأسماء الحسنى، بل كل اسم من ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى له تجلٍ أعظم في أوسع دائرة من دوائر الكون. فيُظهر الفعلُ الناتج من ذلك التجلي الواحد الأحد ظهوراً جلياً يناسب سعة ذلك الفعل ووضوحه"[4]، فيتجلى في الواقع الكوني البشري بشكل جلي واضح.

---

١. انظر المثنوي العربي النوري ٣٢

٢. انظر المثنوي العربي النوري ١٣٥

٣. انظر اللمعات ١٥١

٤. انظر اللمعات ٥٢٠، وانظر الشعاعات ٥٠

ب. حماية التوحيد من جانب العدم

يعتمد الأستاذ في دفع مضادات التوحيد على النظر في الأنفس إضافة إلى الآفاق كما سبقت الإشارة إليه، كثيرا ما يؤكّد هذا المعنى بلفت النظر إلى النفس، منها قوله رحمه الله: "فإذا تأمّلت في "أنا" بالمعنى الحرفي، صار لك عيناً تفهّمت ورأيت به كل ما في الكون، لأنّه إذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفتْ في"أنا" ما يصدقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفة "أنا" وربوبيته الموهومة ومالكيته المفروضة، فليرجع "أنا" من السّمكتية إلى الحبابية .. وأما إذا نظرت إلى "أنا" بالمعنى الأسمي واعتقدته مالكاً، وخنت في الأمانة دخلت تحت ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّيها﴾ إذ الأمانة التي تدهشتْ من حملها السماوات والأرض والجبال هي "أنا" من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك والشرور والضلالات، إذ إذا تستَّر "أنا" عنك غلُظ، حتى صار حبلاً بلع وجودك فصار كلك أنا. ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد به فيصير شيطانا يبارز أمر صانعه. ثم يقيس الناس، ثم الأسباب على نفسه فيقع في شرك عظيم.. ففي هذا الوجه لو أرسلت عينك وفتحت كل الآفاق انغلق في وجهك، برجوع عينك إلى نفسك، إذ ترى كلَّ شيء بلون ما في نفسك من "أنا"، ولونُه في ذاته – في هذا الوجه – الشرك والتعطيل، ولو مُلئت الآفاق آياتٍ باهرةً، وبقي في"أنا" نقطة مظلمة طمَّت على الآيات."[1]

ج. الواقع الكوني والبشري ودلالته على النبوة

الدلائل الأنفسية – على تعبير النورسي – تدل على النبوة والرسالة، مثلها مثل الشمس المصدّقة بالدلائل الآفاقية، فاجتمعت أعالي تلك الحجج والأدلة

---

١. المثنوي العربي النوري ٣٢٨

على أنّ النبي ﷺ يتمتّع بجميع الأخلاق الحميدة في ذاته.. وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية.[1]

يؤكّد الواقع البشري أنّه "لا بد أن يوجد رائدٌ أكمل، ومعلمٌ أكبر، ليرشد الناس إلى ما في ذلك الكتاب الكبير من حِكم مقدسة حقيقية.. وليعلّم وجود الحِكَم المبثوثة في إرجائه ويدلّ عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشد إلى ما يريد الخالق إظهارَه من كمال صنعته البديعة، وجمال أسمائه الحسنى، فيكون كالمرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهض بعبودية واسعة – باسم المخلوقات قاطبة – تجاه مظاهر الربوبية الواسعة، مثيراً الشوقَ وناثراً الوجدَ في الآفاق براً وبحراً ملفتاً أنظار الجميع إلى الصانع الجليل بدعوةٍ ودعاء، وتهليل وتسبيح وتقديس، ترنّ به أرجاء السماوات والأرض..[2]

إنّ الآيات المنظورة والمسطورة تؤكّد أنّ الله تعالى ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ هدانا بإعطاء الحواس الظاهرة والباطنة، ثم هدانا بنصب الدلائل الآفاقية والأنفسية، ثم هدانا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ثم هدانا أعظم الهداية بكشف الحجاب عن الحق فظهر الحق حقا والباطل باطلا.[3] فكان بينها توافق يجلي النظام الإلهي للكون بشقيه المادي والمعنوي.

د. الواقع الكوني والبشري ودلالاته على الحشر

النظر في الكون يدل على تحقيق المعاد وإزالة الشبه، كأنّهم يقولون: أين للإنسان هذه القيمة؟ وكيف له تلك الأهمية؟ وما موقعه عند الله حتى يقيم القيامة لأجله؟

---

١. انظر المثنوي العربي النوري ٥٦

٢. انظر اللمعات ٥٣٦

٣. انظر إشارات الإعجاز ٣١

فكان جواب القرآن الكريم، بإشارات واضحة: إنّ للإنسان قيمة عالية بدليل أنّ السماوات والأرض مسخّرة لاستفادته، وكذا أنّ له أهمية عظيمة بدليل أنّ الله لم يخلق الإنسان للخلق بل خلق الخلق له، وأنّ له عند خالقه لموقعا بدليل أنّ الله تعالى لم يوجد العالم لذاته بل أوجده للبشر وأوجد البشر لعبادته. فأنتج أن الإنسان مستثنى وممتاز لا كالحيوانات.[1] ذلك "أنّ الإنسان مميّز عن الحيوان بشمول علاقته بالماضي والمستقبل، وكلّية إدراكه بالأنفس والآفاق.. وكشفه لترتب العلل الظاهرية في إنشاء الأشياء الظاهرية، فأعظم وظيفته وأقدمها، وأتمّ جهازاته وألزمها، التسبيحُ والتحميد بالجهاز المخلوق لهما، فيسبّح الإنسان صانعه بلسان الماضي والحال والمستقبل، وبألسنة الأنفس والآفاق.. وبسر مشاهدته لتسبيحات المخلوقات وشهادته عليها يثني على صانع الأشياء بقراءة أسمائه المكتوبة بالترتيب والترتب في حكمة صنع الأشياء."[2]

١. انظر إشارات الإعجاز ٢٢٢

٢. المثنوي العربي النوري ٣٣٨

ثانياً: مميزات عرض مقاصد رسائل النور

تمهيد: التناثر المحكم للمقاصد في النص النوري

تتميّز المقاصد بتكررها في رسائل النور وتوزّعها على نصوصها، بشكل يخدم حكمة التكرار، بحيث تخلص إلى اكتشافها بقراءة أيّ نص من نصوص الرسائل، ذلك التناثر المحكم الذي يدلّ بنفسه على نفي العبثية وتأكيد شهادة الحكمة، وعدم الإهمال... ونظرا للتكرر المستفيض كانت النتيجة الحاصلة يقينية لورودها بالاستقراء التام[1].

ولتلك الميزات حكم كثيرة متناثرة على نص رسائل النور، يمكن أن نجملها في نوعين، الحكمة المعرفية والحكمة النفسية.

أولاً: الحكمة المعرفية

١. استناد الأشياء الكثيرة والمتكثّرة إلى الواحد الأحد

يدلّ الاستقراء على استناد الأشياء كلّها إلى واحد أحد، وبذلك تحصل سهولة ويسر بدرجة الوجوب في فهم الكون في شقيه المادي والمعنوي، فيكون التناثر المحكم للمقاصد على النص حجّة قوية قطعية على الحكمة، وبهذا يستبعد استناد الانتظام المحكم إلى أسباب عدة وصنّاع كثيرين، ذلك أنّ تبني هذا الرأي يظهر مشاكل وعوائق وصعوبات بدرجة الامتناع، لأن شخصاً واحداً وليكن

---

١. انظر صيقل الإسلام ١٤٠

ضابطاً أو بنّاءً، يحصل على النتيجة التي يريدها، ويعطي الوضع المطلوب، لكثرة من الجنود، أو كثرة من الأحجار ولوازم البناء، بحركة واحدة وبسهولة تامة، بحيث لو أحيل ذلك الأمر إلى أفراد الجيش أو إلى أحجار البناء لتعسّر استحصال تلك النتائج بل لا يمكن قطعاً إلاّ بصعوبة عظيمة.[1]

لو استصحبت مسلك عدم الإقرار باستناد الكل إلى الواحد الأحد، لأفضى إلى إنكار وجود مقاصد كلية وجزئية حال وجودها المتجلي في عناصر الكون جملة وتفصيلا، وفي ذلك أشنع أنواع إنكار الموجود حال الوجود، يصل حدّ التناقض الصارخ، لا يميل إلى القول به إلاّ ملحد منكر، ذلك أنّ المقاصد في نفسها وتجلياتها تدلّ على استنادها إلى الواحد الأحد في وجودها ثم بقائها.

٢. الدلالة على التناغم والتوازن

يظهر توزّع المقاصد على النصوص بشكل متوازن ومتناغم مع الغايات النهائية والجزئية، نرى ذلك في الجزء الواحد كما نراه في الكلّ، "نعم، كما أنّنا نرى أنّ كلّ فرد بحاجة إلى رزق يدعم حياته، كذلك جميع موجودات العالم –ولا سيما الأحياء– الكلّي منها والجزئي، أو الكلّ والجزء، لها في كيانها، وفي بقائها، وفي حياتها وإدامتها، مطالب كثيرة، وضروريات عديدة، مادةً ومعنىً، ومع أنّها مفتقرةٌ ومحتاجة إلى أشياء كثيرة ممّا لا يمكن أن تصل يدُها إلى أدناها، بل لا تكفي قوّةُ ذلك الشيء وقدرتُه للحصول على أصغر مطالبه، نشاهد أنّ جميع تلك المطالب والأرزاق المادية والمعنوية تُسلَّم إلى يديه من حيث لا يحتسب وبانتظام كامل وفي الوقت المناسب تسليماً موافقاً لحياته متّسماً بالحكمة الكاملة."[2] ولا يخلص إلى تقرير تلك الحقيقة ما لم نسلّم بوجود المقاصد.

---

١. انظر المكتوبات ٢١

٢. الكلمات ٣٣٩

٣. النظر إلى الأشياء من زاوية الوظائف المتكاملة

تقرر الملاحظة الآنفة الذكر بأنّ لوجود كل شيء غايات، ولحياته أهداف ونتائج، فهي ليست بمنحصرة – كما يتوهّم أهل الضلالة – على الغايات والمقاصد التي تتوجه إلى الدنيا أو التي تنحصر في الموجود نفسه، حتى يمكن أن يتسلّل إليها العبث وعدم القصد. بل إنّ غايات وجود كل شيء ومقاصد حياته متنوّعة اختصرها بديع الزمان في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القسم الأعلى والأسمى والمتوجّه إلى الله عزّ وجلّ

يعد هذا القسم أسماها،ذلك أنّه متوجه إلى صانعه سبحانه وتعالى،إذ تعرض دقائق صنع كل شيء وبديع تركيبه أمام الشاهد الأزلي سبحانه – بما يشبه الاستعراض الرسمي – حيث تكفي لذلك النظر حياة الشيء ولو للحظة واحدة. بل قد يكفيه استعداده لإبراز قواه الكامنة –الشبيهة بنيّته– ولمّا يبرز إلى الوجود.

ومثاله: المخلوقات اللطيفة التي تزول بسرعة، والبذور التي لم يتسن لها إعطاء ثمارها و أزاهيرها، تفيد هذه الغاية وتعبّر عنها تماماً، فلا يطرأ عليها عبث ولا انتفاء النفع البتة. و هكذا يؤكّد هذا الطرح أنّ أولى غايات كلّ شيء ؛إعلانه وإظهاره – بحياته ووجوده – معجزات قدرة صانعه، وآثار صنعته، أمام عناية مليكه ذي الجلال.[1]

القسم الثاني: المتوجّه إلى الغاية من الوجود والهدف من الحياة في ذوي الشعور

يقرر العنوان الذي اختاره النورسي تعبيرا عن القسم الثاني، أنّ لمبدع الوجود غاية و هدفا أساسيا يخدم متوجّها إلى حياة ذوي الشعور،غايته في هذا

---

١. انظر الكلمات ٧٩

المقام؛ التوجّه إلى ذوي الشعور أي أنّ كل شيء بمثابة رسالة ربانية زاخرة بالحقائق، وقصيدة تنضح لطفاً ورقّةً وكلمة تفصح عن الحكمة، يعرضها الباري عزّ وجلّ أمام أنظار الملائكة والجن والحيوان والإنسان، ويدعوهم إلى التأمّل، أي أنّ كلّ شيء هو محل مطالعة وتأمّل وعبرة لكل من ينظر إليه من ذوي الشعور.[1]

القسم الثالث: المتوجّه إلى الغاية من الوجود والحياة في الإنسان نفسه

ينتقل بعدها الأستاذ إلى لبّ لباب تلك الخدمات المتوجّهة إلى ذوي الشعور؛ فيؤكّد أنّ على رأس الذين وضع الوجود تحت تصرّفهم وفي خدمتهم الإنسان، إذ يصرّح أنّ غاية الوجود وهدف الحياة في هذا السياق، التوجه إلى ذات الإنسان نفسه، منها على سبيل المثال لا الحصر، التمتّع والتلذّذ وقضاء الحياة والبقاء فيها بهناء، وغيرها من المقاصد الجزئية.

وتأكيدا لهذه المعاني يضرب الأستاذ كيرا من الأمثلة، منها، قوله: إنّ نتيجة عمل الملاّح في سفينة السلطان العظيمة تعود فائدتها إليه وهي أجرته، وهي بنسبة واحد في المائة، بينما تسع وتسعين بالمائة من نتائج السفينة تعود إلى السلطان الذي يملكها، وهكذا إن كانت الغاية المتوجهة إلى كلّ شيء بذاته وإلى دنياه واحدة، فالغاية المتوجهة إلى بارئه سبحانه هي تسع وتسعون.

ويكمن في تعدد الغايات السابق بيانها سرّ التوفيق بين "الحكمة والجود" أي بين "الاقتصاد والسخاء المطلقين" اللذين يبدوان كالضدين والنقيضين.

وتوضيح ذلك: إذا لوحظت غاية بمفردها فإنّ الجود والسخاء يسودان آنذاك، ويتجلى اسم "الجواد"، فالثمار والحبوب حسب تلك الغاية المفردة

---

١. انظر الكلمات ٧٩

الملحوظة لا تعد ولا تحصى. أي أنّها تفيد جوداً مطلقاً وسخاء لا حصر له. أما إذا لوحظت الغايات كلّها فإنّ الحكمة هي التي تظهر وتهيمن، ويتجلى اسم "الحكيم"، فتكون الحِكَم والغايات المتوخاة من ثمرة لشجرة واحدة بعدد ثمار تلك الشجرة، فتتوزّع هذه الغايات على الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها. فهذه الغايات العامة تشير إلى حكمة غير نهائية، واقتصاد غير محدد، فتجتمع الحكمة المطلقة مع الجود المطلق اللذان يبدوان كالضدين.

ويميل النورسي في هذا السياق إلى سوق الأمثلة تيسيرا لاستيعاب الفكرة، فيذكر أنّ إحدى الغايات من الجيش هي المحافظة على الأمن والنظام، فإذا نظرت إلى الجيش بهذا المنظار فسترى أنّ هناك عدداً فوق المطلوب منه. أمّا إذا نظرنا إليه مع أخذنا الغايات الأخرى بنظر الاعتبار كحفظ الحدود، ومجاهدة الأعداء وغيرها، عند ذلك نرى أنّ العدد يكاد يفي بالحد المطلوب، فهو إذن توازن دقيق بميزان الحكمة. إذ تجتمع "حكمة" الحكومة مع "عظمتها". وهكذا يمكن القول في هذه الحالة: أن الجيش ليس فوق الحد المطلوب.[1]

٤. تعدد الوظائف وشمولها

يعد توزّع المقاصد على النص النوري مظهرا من مظاهر تعدد الوظائف وشمولها إضافة إلى تكاملها، يمكن اكتشاف ذلك من ملاحظة أنّ القدير الجليل وفق ما حدّده من مقاصد مخصوصة أعطى كلَّ عنصرٍ من العناصر وظائف كثيرة، ويُنشئ على كلٍ من تلك الوظائف نتائج كثيرة.

فلو ظهرت نتيجة واحدة قبيحة – أي شر ومصيبة وبلاء – من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفه الكثيرة، فإنّ سائر النتائج المترتّبة على ذلك

---

١. الكلمات ٧٩

العنصر، تجعل هذه النتيجة الوخيمة في حكم الحسن والجميل، لأنّها جميلة وحسنة إذ لو مُنع ذلك العنصر الغاضب على الإنسان من تلك الوظيفة للحيلولة دون مجيء تلك النتيجة الوحيدة البشعة للوجود لتُركت إذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيرة المترتبة على سائر وظائف ذلك العنصر. أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيرة، حيث إنّ عدم القيام بخير ضروري، إنّما هو شر كما هو معلوم. كلّ ذلك للحيلولة دون مجيء شر واحد! وما هذا إلاّ منافاةٌ للحكمة. وهو قبح واضح، ومجافاة للحقيقة، وقصور مشين. بينما الحكمة والقدرة والحقيقة منزّهة عن كلّ نقص وقصور.[1] وبهذا نستبعد الفوضى في فهم العالم، ويمن في ذلك أبين دليل على تعدد الوظائف و شمولها بما يخدم المقاصد الجزئية والكلية.

٥. الأصل الواحد الذي يحكم الكلّ

تناثر المقاصد على جميع الجزئيات والكليات المكتشفة يدل على الأصل الواحد الذي يحكم الجميع في إطار تكاملي شامل، يحدد لكلّ دوره في إطار مقاصد فرعية وكلية، بحيث إذا أسندت الأشياء كلّها إلى واحد أحد، تحصل سهولة ويسر بدرجة الوجوب، وإن أسندت إلى أسباب عدة وصنّاع كثيرين تظهر مشاكل وعوائق وصعوبات بدرجة الامتناع. لأنّ شخصاً واحداً، وليكن ضابطاً أو بنّاءً، يحصل على النتيجة التي يريدها، ويعطى الوضع المطلوب، لكثرة من الجنود، أو كثرة من الأحجار ولوازم البناء، بحركة واحدة وبسهولة تامة، بحيث لو أحيل ذلك الأمر إلى أفراد الجيش أو إلى أحجار البناء لتعسّر استحصال تلك النتائج بل لا يمكن قطعاً إلاّ بصعوبة عظيمة.[2] فلو أحيلت

---

١. انظر الكلمات ١٩٧

٢. المكتوبات ٢١

المهارة في بناء القبة إلى أحجارها، وفوّض ما يخصّ الضابط في إدارة الفوج إلى الجنود أنفسهم، فإما لا تحصل تلك النتيجة ولا تأتي إلى الوجود أصلاً أو يحدث فوضى من عدم الانتظام ومشكلات واختلاط الأمور. بينما إذا أسندت المهارة في بناء القبب إلى صانع ليس من نوع الحجر، وفوّضت إدارة الجنود في الفوج إلى ضابط حاز ماهية الضابط – من حيث الرتبة – فإن الصنعة تسهّل والإدارة تتيسّر، حيث إنّ الأحجار وكذا الجنود يمنع أحدها الآخر.بينما البنّاء والضابط ينظران ويتوجّهان ويديران كلّ نقطة من نقاط البناء أو الجنود دون مانع أو عائق. (ولله المثل الأعلى) إن الماهية المقدّسة لواجب الوجود ليست من جنس ماهية الممكنات. بل جميع حقائق الكائنات ليست إلاّ أشعة لاسم "الحق" الذي هو اسم من الأسماء الحسنى لتلك الماهية.[1] وبتلك الصفة نستشف السير المنضبط للكون وفق مقاصد مخصوصة تقتضيها بعض أشعة اسم "الحق".

٦. دليل أهمية المقاصد في رسائل النور

توزّع المقاصد على النصوص يدلّ على أهميتها ومركزيتها، بحيث تظهر في الغالب الأعم في كل فقرة من فقرات النص، وبهذا يتأكّد أنّ الشارع الحكيم قصد إظهارها في كلّ النصوص لغاية وظيفية، كي لا يغفل عنها الإنسان، كما أنّ التوزّع على النص وسيلة قوية لفهم الوحدة المتجلية في الكثرة، ذلك أنّ الوحدة المتجلية في الكثرة دليل على المقاصد الموزّعة على النص، كما "أنّ في طريق الوحدة والإيمان سهولة مطلقة بدرجة الوجوب، بينما في طريق الشرك والأسباب والكثرة مشكلات وصعوبات بدرجة الامتناع، لأنّ الواحد يعطي وضعاً معيناً لكثير من الأشياء، ويستحصل منها نتيجة معينة دون عناء، بينما لو أحيل اتّخاذ ذلك الوضع واستحصال تلك النتيجة إلى تلك الأشياء الكثيرة، لما

---

١. المكتوبات ٣٢٥

أمكن ذلك إلاّ بتكاليف وصعوبات كثيرة جداً وبحركات كثيرة جداً."[1] بل لعدّ من باب المحال ليس صعبا تصوّره فحسب بل يعد من قبيل التشغيب.

٧. مظهر من مظاهر الحكمة الربانية

يؤكّد التناثر المحكم للمقاصد في النص النوري، تعدد الغايات الذي تكمن فيه كثير من مظاهر الحكمة الربانية المعبّرة عن بعض وجوه تلك المقاصد الحكيمة، إذ فيها يكمن سر التوفيق بين الحكمة والجود أي بين الاقتصاد والسخاء المطلقين، اللذين يبدوان كالضدين والنقيضين، وتوضيح ذلك إذا لوحظت غاية بمفردها فإنّ الجود والسخاء يسودان آنذاك، ويتجلى اسم "الجواد"، فالثمار والحبوب حسب تلك الغاية المفردة الملحوظة لا تعد ولا تحصى، أي أنّها تفيد جوداً مطلقاً وسخاء لا حصر له، أمّا إذا لوحظت الغايات كلّها، فإنّ الحكمة هي التي تظهر وتهيمن، ويتجلى اسم "الحكيم"، فتكون الحِكَم والغايات المتوخاة من ثمرة لشجرة واحدة بعدد ثمار تلك الشجرة، فتتوزّع هذه الغايات على الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها، فهذه الغايات العامة تشير إلى حكمة غير نهائية، واقتصاد غير محدد، فتجتمع الحكمة المطلقة مع الجود المطلق اللذان يبدوان كالضدين."[2]

٨. استبعاد العبثية

ويستفاد من تناثر المقاصد على النصوص والكون استبعاد العبثية والإسراف في خلق الموجودات، وأنّ عدمهما يشير إلى السعادة الأبدية والدار الآخرة. والدليل على أنّه ليس في الفطرة إسراف ولا في الخلق عبث، وفي ذلك أجلى

---

١. المكتوبات ٣٣٣

٢. الكلمات ٧٩

صور القصد في الوضع، "ذلك أنّ الخالق سبحانه وتعالى قد اختار لخلق كلّ شيء أقرب طريق، وأدنى جهة، وأرقّ صورة، وأجمل كيفية، فقد يسند إلى شيء واحد مائة وظيفة، وقد يعلّق على شيء دقيق واحد ألفاً من الغايات والنتائج. فما دام ليس هناك إسراف، ولا يمكن أن يكون هناك عبث فلابدّ أن تتحقق تلك الحياة الأخرى الأبدية. وذلك إن لم يكن هناك رجوع إلى الحياة من جديد، فإنّ العدم يحوّل كل شيء إلى عبث، بمعنى أنّ كلّ شيء كان إسرافاً وهدراً. إلاّ أنّ عدم الإسراف الثابت حسب علم وظائف الأعضاء في الفطرة جميعها -ومنها الإنسان- ليبيّن لنا أنّه لا يمكن أن تذهب هباءً -فيكون إسرافاً- جميع الاستعدادات المعنوية، والآمال غير النهائية، والأفكار والميول.. حيث إنّ الميل الأصيل إلى التكامل المغروس في أعماق الإنسان يفصح عن وجود كمال معين، وأنّ ميله وتطلّعه إلى السعادة يعلن إعلاناً قاطعاً عن وجود سعادة خالدة وأنّه المرشح لهذه السعادة".[1]

٩. مظهر زينة الكائنات ماديا ومعنويا

يظهر توزّع المقاصد على النصوص "أنّ الحكيم المطلق قد زيّن هذه الكائنات العظيمة ونظّمها إظهاراً لأمثال هذه المقاصد العظمى والغايات الجليلة.. وأنّ في هذه الموجودات نوعَ الإنسان الذي يستطيع أن يشاهد هذه الربوبية العامة بجميع دقائقها، وهذه الألوهية الجليلة بجميع حقائقها.. فلا ريب أنّ ذلك الحكيم المطلق سيتكلم مع الإنسان وسيُعْلِمُه مقاصدَه".[2] فالتوزّع نفسه زينة مادية ومعنوية تدل على الانتظام والنظام، بحيث لو سيق بعضها قبل المقدّم عنه لفقدت الزينة المشاهدة.

---

١. انظر الكلمات ٦١٤

٢. انظر الكلمات ٦٧٨

١٠. دلالتها على المنظّم

التوزّع المحكم للمقاصد على العالَمين المادي والمعنوي يستدل به على المنظّم الحكيم الجواد اللطيف بعباده، بل تعد تلك المقاصد في توزّعها بعض تجليات الأسماء الحسنى.

كما أنّ المقاصد المحكمة التوزيع على العالمين المادي والمعنوي تؤكّد وحدة النظام، وبالتالي كان المنظّم واحدا مستقلا عن النظام نفسه أو مكوّناته.

يقول الأستاذ بديع الزمان: "نعم، كما أنّ الإبداع الظاهر على "المسبَّبات"وروعة جمالها قد عَزَلت الأسباب وسلبتها قدرة الخلق، ودلَّتنا بلسان حالها على مسبِّب الأسباب، وسلَّمتْ الأمور كلّها بيد الله كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِلَيه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود: ١٢٣) كذلك النتائج التي نيطت بالمسبَّبات، والغايات الناشئة والفوائد الحاصلة منها، تظهر جميعاً بداهةً أن وراء حجاب الأسباب ربّاً كريماً، حكيماً، رحيماً، وأن ما نراه من أشياء ليست إلاّ من صنعه وإبداعه سبحانه."[١]

١١. الآثار المتجددة للنظام

تجاوز توزّع المقاصد الدلالة على النظام،إذ يدلّ أيضا على تجدد النظام، "يستشف ذلك من الآثار المتجدّدة البادية للعيان، تلك التي تملأ الكون، وتدلّ بداهة على أفعال في منتهى الحكمة والكمال، وأنّ عناوين هذه الأفعال الظاهرة من خلال منتهى الإتقان وغاية الحكمة تدلّ بالبداهة على فاعل كاملٍ منزّهٍ عن النقص في عناوينه وأسمائه. لأنَّ الأفعال المتقنة والحكيمة معلومٌ بداهةً أنها لا تحصل دونما فاعل. وأنّ العناوين التي هي في منتهى الكمال تدل على الصفات".[٢]

---

١. الكلمات ٨٢٠

٢. انظر الكلمات٨٠١

ويرى أثر المنظّم على صغير الكون وكبيره، فيرى التناغم الفني والـــوظيفي و... من ذلك "مثلا أنّ النجم كالمَلك والسَمَك له أفراد في غاية الـــصغر وفي غاية الكبر، فكل ما يضيء في وجه السماء فهو نجم، فمن هذا النوع ما يُزَيّن به السماء كالجواهر والأثمار والأسماء، ومنه ما يُرجم به الشياطين كالمنجنيقـــات المرماة للطرد، أو للإشارة إلى وجود الحارسين المتيقظين المطيعين المجتنبين عـــن اختلاط العاصين، أو للرمز إلى جريان قانون المبارزة في أوسع الـــدوائر.. ولله الحجة البالغة والحكمة القاطعة".[1]

"إنّك لو لاحظت ماهية ما هو ظاهر في أغلب الأشياء من تنظيم الحكمـــة وتزيين العناية وتقدير العدالة ولطافة الرحمة، تبيّن لك أنّه صادرة من يد القدرة لصانع حكيم، كريم، عادل، رحيم، كذلك إذا لوحظت عظمة هذه الصفات الجليلة وقوتها وطلاقتها، مع قصر حياة هذه الموجودات في هذه الدنيا وزهادتها فان الآخرة تتبين من خلالها".[2]

١٢. الحكمة الموزّعة على كل مظاهر الكون

من مقتضيات النظر في التوزّع المحكم للمقاصد على الكونين المنظور والمسطور تأكيد النظام ومشاهدة الحكمة التي تعطي كلّ شيء دوره المنوط به، فتكشف على أنّ المقدّر القدير الحكيم لا يشغله صغير عن كبير، ولا خطير عن حقير. وأنّ المحيط الظاهر الباطن المجرّد عن المادة لا يواري الأكبرُ عنه الصغر. ولا النوعُ الفـــردَ. وأنّ الصغير مادةً قد يكون كبيراً من جهة الصنعة. وأنّ نوع الصغير، عظيم كثير كبير. وأنّ العظمة المطلقة لا تقبل الشركة أصلا ولا تتحملها.[3]

---

١. المثنوي العربي ٣٣٦

٢. انظر الكلمات ٩٧

٣. انظر المثنوي العربي ٤١٥

١٣. تقسيم الأعمال وتكاملها

تناثر المقصد بنفسه دال على تقسيم محكم للأعمال في إطار شامل متكامل وأساس هذه القاعدة هو: "أنّ الامتثال والطاعة لقانون التكامل والرقي للصانع الجليل – الجاري في الكون على وفق تقسيم الأعمال – فرض وواجب، إلاّ أنّ الطاعة لإشارته ورضاه سبحانه الكامنين في ذلك القانون لم يوف حقها. علماً أنّ يد عناية الحكمة الإلهية – التي تقتضي قاعدة تقسيم الأعمال – قد أودعت في ماهية البشر استعدادات وميولاً، لأداء العلوم والصناعات التي هي في حكم فرض الكفاية لشريعة الخلقة (السنن الكونية)".[1]

ثانيا: الحكمة التربوية

١. الدعوة للاستغفار قدر العدد اللانهائي من تناثر المقاصد التي لا يكافئ عددها ما لا نهاية له من الاستغفار

فضل الله على البشر لا حصر له عددا، ونعمه تحيط بهم من كل جانب، ففي كلّ مقصد نعمٌ لا يبلغها العد، وإذا كان التوزّع لا حصر له ولا عد، بحيث نجد تجلياته في كل شيء مهما دقّ وفي كلّ نص مهما قصر في الغالب الأعم، فإنّ التعدد مدعاة للتذكّر والاستغفار، ولا يقابل ما لا نهاية له بما له حد، فتكون التجليات التي لا حصر لها سببا في الدفع إلى استغفار لا حصر له، سجّل هذا المعنى قول بديع الزمان: "إنني أقسم بما آتاني الله من قوة بل لو كان لي مالا يعد ولا يحصى من الألسنة لأقسمت بها جميعاً، أقسمت بالذي خلق العالم بهذا النظام الأكمل (وهي مظهر من المظاهر الجلية للتوزّع المحكم للمقاصد على الكون)، وخلق الكون في منتهى الحكمة والانتظام من الذرات

---

١. صيقل الإسلام ٤٣

إلى السيارات السابحات في أجواز الفضاء (دليل على توزّع حكيم لا حصر له) ومن جناح البعوضة إلى قناديل النجوم المتلألئة في السموات، ذلكم الحكيم ذو الجلال والصانع ذو الجمال، أقسم به سبحانه بألسنة لا تحد أنّه لا يمكن أن يخرج البشر على سنة الله الجارية في الكون ويخالف بقية إخوانه من طوائف المخلوقات بشروره الكلية ويقضي بغلبة الشر على الخير فيهضم تلك المظالم الزقومية على مدى ألوف السنين، فهذا لا يمكن قطعاً."[1]

٢. تناثر المقاصد تذكير دائم في كل المظاهر الكونية

يفيد تناثر المقاصد تذكيرا مستمرا دائما، بحيث يتذكّر القارئ المستفحّص الغايات الأصلية وتوابعها، وذلك بما يظهر من غايات متعددة وثمرات متنوّعة ووظائف مختلفة، "انظر في نفسك ألا ترى أنّ للسانك وظائف بعدد شعر رأسك؟ فالجود باعتبارٍ غاية بلا حساب وباعتبار وظيفةٍ لا ينافي الحكمة والعدالة في وجوده الناظر إلى مجموع الغايات والوظائف، كالعسكر المستخدم في تعقيب ذي جناية أو في حماية قافلة مثلا، ففي العسكر كثرة وجود بلا حساب بالنسبة إلى أمثال هذه الخدمات الجزئية مع القلّة والمساواة لما يلزم لحفظ الثغور والحدود وسائر الغايات.."[2]

وبسبب الغفلة عن التذكّر المستفاد من العدد الذي لا حصر له من المقاصد الموزّعة بإحكام، تحول النفس الأمارة المتتلمذة للشيطان بين الإنسان والنظر المثمر، فتظنّ صغر الجسم سبب صغر الصنعة، فتجوِّز صدورها من أسباب صمٍ عُميٍ، وتدّعى في الكبير المنبسط عدم الكتابة بالحكمة، ووجود العبثية

---

١. صيقل الإسلام ٥٠٣

٢. المثنوي العربي النوري ٣٥٦

والتصادف..[1] إنّها أظهر صور الغفلة عن ذلك الحبك المنظّم للمقاصد على الآيات المنظورة والمسطورة.

٣. الدعوة إلى الحسن والخير والحق والكمال

يعد من الأبعاد التربوية المطلوبة والمقصودة، النظر إلى توزّع المقاصد على النص النوري من زاوية تربوية، وييسّر ذلك النظر مشاهدة الحسن والخير والحق والكمال الذي يمثّل مقصدا أساسيا في الغالب، وهو المقصد المطلق في خلق العالم، وبشهادة العلوم جميعها، وبتصديق الاستقراء الناشئ من نظر الحكمة، أمّا الشرّ والقبح والباطل، فهي أمور تبعية ومغلوبة ومغمورة، وحتى لو كانت لها الصولة فهي صولة مؤقتة.[2] "لهذه الحكمة بدأ هذا السلطان بتشييد قصر فخم شامخ جداً، وقسّمه بشكل بارع إلى منازل ودوائر مزيّناً كلَّ قسمٍ بمرصعات خزائنه المتنوعة، وجمّله بما عملت يداه من ألطف آثار إبداعه وأجملها، ونظّمه ونسّقه بأدقّ دقائق فنون علمه وحكمته، فجهزه وحسّنه بالآثار المعجزة لخوارق علمه".[3]

٤. اكتشاف قيمة الإنسان

القراءة النافعة للمقاصد تسهم في اكتشاف الإنسان قيمته، وبذلك تسهم في صناعة وعيه بقوته الكامنة، وتذكّره بوظيفته الأصلية.

إنّ النظر في الكون من زاوية المقاصد يؤكّد أنّه كما أنّ قيمة الإنسان المؤمن قيمةُ ما فيه من الصنعة العالية، والصبغة الغالية ونقوش جلوات الأسماء،

---

١. المثنوي العربي النوري ٣٥٦

٢. انظر صيقل الإسلام ٥٣

٣. الكلمات ١٢٩

المستفادة من تناثر المقاصد عليه وعلى ما حوله من مظاهر الكون المادية والمعنوية، كما أنّ غفلة الإنسان الكافر عن تلك المقاصد المتناثرة تجعل قيمته قيمة مادته الفانية الساقطة..

تزيد بلا نهاية قيمة هذا العالم إذا نظر إليه من زاوية تناثر المقاصد على كلّياته وجزئياته – إن نظر إليه بالمعنى الحرفي وبحسابه سبحانه – كما علّم القرآن. أمّا إذا غفلنا عن تلك المقاصد المتناثرة تسقط قيمته إلى درجة المادة المتغيّرة الجامدة – إن نظر إليه بالمعنى الإسمي وبحساب الأسباب [1]– كما علَّمَتْه الحكمة الفلسفية.[2]

٥. ظهور قيمة الأشياء مهما صغرت في تناثر المقاصد على الكون

الاهتمام بالأنا مفسدة تبعد العناية المعرفية والموضوعية بالأشياء مادية كانت أو معنوية، وخاصة تلك التي لا صلة لها بمصالح الأناني المادية والمعنوية، ويرجع نظر الأناني إلى إهمال المقاصد والغايات في تحقيق النظر الدقيق إلى الأشياء مهما صغرت، فالواحد في هذه المخلوقات والممكنات الاعتيادية – وهي ناقصة فانية – لما فيها من "(النورانية والشفافية والانتظام والامتثال والموازنة) فلابدّ أنّه يتساوى أمام القدير المطلق القليل والكثير، والصغير والكبير، وحشرُ فرد واحد وجميع الناس بصيحة واحدة، وذلك بالتجليات "النورانية" المطلقة لقدرته الذاتية المطلقة وهي في منتهى الكمال، و"الشفافية" و"النورانية" في ملكوتية الأشياء، و"انتظام" الحكمة والقدرة، و"امتثال" الأشياء وطاعتها لأوامره التكوينية امتثالاً

---

١. الظن بأنّ قوّته ذاتية وليست من الله تعالى، ويراد بالشق الثاني التعلّق بالأسباب و ربط المصير بها عوض الرجوع إلى جاعل الأسباب وخالقها.

٢. انظر المثنوي العربي النوري ٣٧٨

كاملاً، وبسر"موازنة" الإمكان الذي هو تساوي الممكنات في الوجود والعدم".[1]

٦. إظهار الوظائف الجزئية للأشياء

المعرفة الجزئية في إطار المقاصد والغايات تظهر الوظائف الجزئية فضلا عن الوظائف الكلية الكبرى، ذلك أنّ الكلية الكبرى تركيب لمجموعة من الوظائف الجزئية – قد نبلغ عدّها وقد لا نبلغه–، وقد بيّن بديع الزمان ذلك النظر بمثال رائع، قال فيه: "إذا ما شيَّد معماري بارع حكيم قصراً منيفاً، وأودع في كلّ حجر من أحجاره مئات الحِكَم والمصالح والفوائد، فلا يتصوّر مَن له شعور أن لا يبني له سقفاً يحفظه من البلى والفساد، لأنّ هذا يعني تعريض البناء إلى العدم والتلف وضياع تلك الفوائد والحكم التي كان يرعاها ويتولاها، وهذا ما لا يرضى به ذو شعور، أو أنّ حكيماً مطلقاً يُنشئ من درهم من البذور مئات الأطنان من الفوائد والحكم والغايات، ويتعقبها ويديرها، لا يمكن أن يَتَصور مَن له عقل صدور العبث والإسراف المنافيين كلّياً للحكمة المطلقة من ذلك "الحكيم المطلق" فيقلّد الشجرة الضخمة فائدة جزئية، وغاية تافهة وثمرة قليلة، علماً أنّه ينفق لإنشائها وإثمارها الكثير" [2]

والنظر وفق هذه الرؤية المتميّزة يسمح بالتأسيس الجلي للإيمان، لأن إحداث عوالم ذات حياة، وإيجاد كائنات موظّفة في هذه الدنيا، إحداثاً وإيجاداً بكلّ علم وحكمة، وميزان وموازنة، وانتظام ونظام، واستعمالها بقدرة، واستخدامها برحمة في المقاصد الربانية، وفي الغايات الإلهية، وفي الخدمات الرحمانية، تدلّ

---

١. الكلمات ٩٩

٢. اللمعات، اللمعة الثلاثون ٥٣٥

بالبداهة على وجوب وجود ذاتٍ مقدسة جليلة لا حـــدّ لقـــدرتها، ولانهايـــة لحكمتها، ويظهرها للعقول واضحة كالشمس.[1]

٧. اكتشاف التناغم مع الفطرة

النظر التمحيصي في المقاصد يبيّن تناغمها مع الفطرة بجميـــع مظاهرهـــا ومضامينها، ولعلّ من أهم تلك المظاهر تناغمها مع فطرة الإنسان، إذ يتجلـــى في المقاصد والغايات الشرعية والكونية المادية والمعنوية الرعاية التامة في الموازنة والاطراد والمطابقة لدساتير الفطرة، بل أبعد من ذلك، فترى الاتحاد في المقاصد والغايات في خدمة ذلك الهدف، لهذا ترى المقاصد محافظة على الميزان الكوني بشكل جلي ظاهر لا يغفل عنه إلاّ مريض ولا ينكره إلاّ متكبّر.[2]

٨. الصلة بين المكوّنات من تناثر المقاصد

وتظهر صلة المكوّنات المادية والمعنوية ببعضها من تناثر المقاصد وتوزّعهـــا على الكون بمظهريه المسطور (الكتاب) والمنظور (الكون المادي)، خذ مثلا ما اشتهر بين الناس من "حق الحياة" وهو حفظ الحياة مع نوع راحة، فأقلّ وأصغر وأدنى وأحقر من أن يكون جزءاً من ملايين أجزاء "حق الحياة" تلك الحياة التي هي من أعلى وأغلى وأعجب وأغرب وألطف وأشرف معجزات قدرة الحـــي القيوم الأحد الصمد، بل ما هو إلاّ وسيلة وإنّما يتشرف ما بقي وسيلةً، فـــإذا ترقى إلى المقصدية، سقط بالزوال هباءً منثوراً..[3]

ومن أمثلة ذلك أيضا، لمعات إعجاز القرآن كما ذكرت في أكثر من موضع

---

١. انظر الشعاعات ١٨٣

٢. اللمعات ٨٨٢، الملاحق ١٨٤

٣. انظر المثنوي العربي النوري ٤١٧

من رسائل النور، "إنّه جمع السلاسة الرائقة والسلامة الفائقة والتساند المتين والتناسب الرصين والتعاون بين الجمل وهيئاتها والتجاوب بين الآيات ومقاصدها بشهادة علم البيان وعلم المعاني، مع أنّه نزل في عشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات، نزولاً متفرّقاً متقاطعاً مع كمال التلاؤم كأنّه نزل دفعة، ولأسباب نزول مختلفة متباينة مع كمال التساند كأنّ السبب واحد، وجاء جواباً لأسئلة مكررة متفاوتة مع نهاية الامتزاج والاتحاد كأنّ السؤال واحد. وجاء بيانا لحادثات أحكام متعدّدة متغايرة مع كمال الانتظام كأنّ الحادثة واحدة. ونزل متضمنا لتنزلات إلهية في أساليب تناسب أفهام المخاطبين، لاسيما فهم المنزل بحالات في التلقي متنوعة متخالفة مع حسن التماثل والسلاسة كأنّ الحالة واحدة. وجاء متكلّما متوجها إلى أصناف مخاطبين متعددة متباعدة مع سهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الأفهام كأنّ المخاطب واحد بحيث يظن كل صنف أنّه المخاطب بالأصالة. ونزل مهديا وموصلا لغايات إرشادية متدرجة متفاوتة مع كمال الاستقامة والموازنة والنظام كأن المقصد واحد، فمن كانت له عين سليمة في بصيرته، فلا ريب أنّه يرى في القرآن عيناً ترى كل الكائنات ظاهراً وباطناً كصحيفة مبصرة واضحة يقلّبها كيف يشاء، فيعرِّف معانيها على ما يشاء.."[1]

وتؤكّد رسائل النور تلك الحقائق بظهور اسم "الجواد" في الجزئيات مهما صغرت، وتظهر اسم "الحكيم" في تناغم الكل وتوافقه، ولاشك أنّ الربط بينها لا يكون إلاّ بانتشار المقاصد وتوزّعها على العوالم المادية والمعنوية، ليس هذا فحسب، بل هي تجليات للمقاصد والغايات، يشهد لهذا المعنى قول بديع الزمان: "إذا لوحظت غاية بمفردها فإنّ الجود والسخاء يسودان آنذاك، ويتجلى

---

١. المثنوي العربي النوري ٧٧

اسم "الجواد"، فالثّمار والحبوب حسب تلك الغاية المفردة الملحوظة لا تعد ولا تحصى. أي أنّها تفيد جوداً مطلقاً وسخاء لا حصر له. أمّا إذا لوحظت الغايات كلّها فإنّ الحكمة هي التي تظهر وتهيمن، ويتجلى اسم "الحكيم"، فتكون الحِكَم والغايات المتوخاة من ثمرة لشجرة واحدة بعدد ثمار تلك الشجرة، فتتوزع هذه الغايات على الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها. فهذه الغايات العامة تشير إلى حكمة غير نهائية، واقتصاد غير محدد، فتجتمع الحكمة المطلقة مع الجود المطلق اللذان يبدوان كالضدين."[1]

ونلاحظ الشاهد نفسه في عرضه لتجليات الأسماء الحسنى، ففي الدعاء نحن أيضاً نطلبه، بل مع جميع ما تجلى علينا من أسماء الله الحسنى، نطلب حصول ما يطلب هو.. ثم انظر إلى طوره في طرز تضرعاته كيف يتضرّع بافتقارٍ عظيمٍ في اشتياق شديد وبحزن عميق في محبوبية حزينة، بحيث يهيّج بكاء الكائنات فيبكيها فيُشركُها في دعائه.. ثم انظر لأيّ مقصدٍ وغاية يتضرع، ها هو يدعو لمقصدٍ لولا حصول ذاك المقصد لسقط الإنسان بل العالم بل كل المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معنى، وبمطلوبه تترقى الموجوداتُ إلى مقامات كمالاتها... ثم انظر كيف يتضرّع باستمدادٍ مديد، في غياث شديد، في استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرشَ والسموات، ويهيّج وجدَها، حتى كأنّ يقول العرش والسموات: آمين اللهم آمين.. ثم انظر ممّن يطلب مسئولَه؟ نعم، يطلب من القدير السميع الكريم ومن العليم البصير الرحيم، الذي يسمع أخفى دعاءٍ من أخفى حيوانٍ في أخفى حاجة، إذ يجيبه بقضاء حاجته بالمشاهدة، وكذا يبصر أدنى أملٍ في أدنى ذي حياة في أدنى غاية، إذ يوصله إليها من حيث لا يحتسب بالمشاهدة، ويُكرم ويَرحم بصورة حكيمة، وبطرز منتظم،

---

١. الكلمات ٧٩

لا يبقى ريب في أنّ هذه التربية والتدبير من سميع عليم ومن بصير حكيم[1]، فالغايات راجعة إلى المحيي جلّ جلاله بالمظهرية لتجليات أسمائه، وبإظهار ألوان وأنواع جلوات رحمته في جنته في الحياة الأخروية التي هي ثمرات بذور هذه الحياة الدنيوية وهكذا..[2]

وتقرر الحقيقة نفسها في كثير من المواضع في رسائل النور، منها قول النورسي: "إنّ الذي يجعل النتيجة الواحدة تولّد نتائج متعاقبة هو: جمع الأصول المتعددة وذكرها، لأنّ لكلّ أصل من الأصول، وإن لم يكن له ارتباط بالذات وقصدٌ بالنتيجة الرفيعة، ففي الأقل يهزّها ويكشفها إلى حدّ ما. فكأنّ الكلام يشير بتباين الأصول -التي هي مظاهر ومرايا متعددة للمقاصد- وبوحدة النتيجة والمتجلّى، إلى تجرّد المقصد وسموّه"[3]

ويشهد لهذا المعنى تصريحه الذي لا يقبل التأويل، وخاصة في قوله: "ثم إنّ مما يحوِّج إلى التمثيل عمق المعنى ودقته ليتظاهر بالتمثيل، أو تفرّق المقصد وانتشاره ليرتبط به، ومن الأول متشابهات القرآن الكريم، إذ هي عند أهل التحقيق نوع من التمثيلات العالية وأساليب لحقائق محضة ومعقولات صرفة، ولأن العوام لا يتلقون الحقائق في الأغلب إلاّ بصورة متخيّلة، ولا يفهمون المعقولات الصرفة إلاّ بأساليب تمثيلية لم يكن بدّ من المتشابهات كـ(اِسْتوى عَلَى الْعَرْشِ) لتأنيس أذهانهم ومراعاة أفهامهم".[4]

والمتدبّر في كتاب الله يتأمّل مثلا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ

---

١. المثنوي العربي النوري ٦٣

٢. المثنوي العربي النوري ١٩٣

٣. صيقل الإسلام ١١٠

٤. إشارات الإعجاز ١١٨

عَذَابِ رَبِّكَ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٦) المسوقة للتهويل المستفاد من التقليل بسر انعكاس الضد من الضد، أفلا ترى التشكيك في "إن" كيف يمد التقليل، والمسّ بدل الإصابة في "مسّت" كيف يشير إلى القلة والتروّح فقط، والمرتّقية والتحقير في جوهرِ وصيغةِ وتنوينِ "نفحةٌ" كيف تلوِّح بالقلة، والبعضية في "مِن" كيف تومئ إليها، وتبديل النكال بالـ"عذاب" كيف يرمز إليها، والشفقة المستفادة من الـ"ربّ" كيف تشير إليها، وقس؟!.. فكلٌ يمد المقصد بجهته الخاصة، وقس على هذه الآية أخواتها، وبالخاصة ﴿الم. ذلكَ الكِتَابُ لاَ رَيبَ فِيهِ هُدَى لِلمُتَّقِين﴾ لأن هذه الآية ذُكرت لمدح القرآن وإثبات الكمال له.[1]

وتوزّعت المقاصد على العالمين المادي والمعنوي لغرض وظيفي ظاهر، أشرنا في البداية إلى أهميته في التأسيس لدرس تذكيري دائم، إذ يخلص القارئ إلى المقاصد ومن ثمّ وظائفها بالنظرة العجلى إلى أي جزء من أجزاء الكون المادي والمعنوي، وزيادة إلى ذلك يكتشف الناظر إلى الكون من منظور رسائل النور حصة كلّ جزء في المقاصد من جهة ووظائفها من جهة أخرى، فإذا نظر إلى المقاصد من زاوية تحليلة أو تركيبية تقررت الحقيقة المشارة إليها آنفا، وبهذا الصدد يقول بديع الزمان: "فيا من آنس قيمة التركيب من جانب التحليل، وأدرك فرق الكلّ عن كلٍ، انظر نظرة واحدة إلى تلك القيود والهيئات لترى كيف يلقي كلٌ حصته إلى المقصد المشترك مع دليله الخاص، وكيف يفور نورُ البلاغة من الجوانب".[2]

كما يؤكّد توزّع المقاصد الدور الكلي للجزء من المقاصد، بمعنى أن للمقاصد الجزئية دورا فاعلا في الكل، بحيث يؤثّر فقدها في تحقيق المقاصد الكلية لوظائفها،

---

١. إشارات الإعجاز ٤٥

٢. إشارات الإعجاز ٤٧

"فإن شئت فانظر إليه وهو في الصلاة الكبرى، التي بعظمة وسعتها صيّرت هـذه الجزيرة بل الأرض مصلين بتلك الصلاة الكبرى.. ثم انظر إنّه يصلي تلك الـصلاة بهذه الجماعة العظمى، بدرجة كأنّه هو إمامٌ في محراب عصره واصـطفَّ خلفَـه، مقتدين به جميعُ أفاضل بني آدم، من آدم (عليه السلام) إلى هذا العصر إلى آخـر الدنيا في صفوف الإعصار مؤتمين به ومؤمّنين على دعائه. ثم استمع ما يفعـل في تلك الصلاة بتلك الجماعة.. فها هو يدعو لحاجةٍ شديدة عظيمة عامـة بحيـث تشترك معه في دعائه الأرضُ بل السماء بل كل الموجودات، فيقولـون بألـسنة الأحوال: نعم يا ربنا تقبّل دعاءه، فنحن أيضاً بل مع جميع ما تجلّـى علينـا مـن أسمائك نطلب حصولَ ما يطلب هو.. ثم انظر إلى طوره في طرز تضرعاته كيـف يتضرع، بافتقار عظيم، في اشتياق شديد، وبحزن عميق، في محبوبية حزينة، بحيـث يهيّج بكاء الكائنات فيبكيها فيُشركها في دعائه. ثم انظـر لأي مقـصد وغايـة يتضرّع؟ ها هو يدعو لمقصد لولا حصول ذاك المقصد لسقط الإنسان، بل العالم، بل كلّ المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معـنى. وبمطلوبـه تترقّـى الموجودات إلى مقامات كمالاتها.. ثم انظر كيف يتضرع باسـتمداد مديـد، في غياث شديد، في استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرش والسموات، ويهـيّج وَجْدها، حتى كأنّ العرشَ والسموات يقول:آمين اللّهم آمين.. ثم انظر ممن يطلب مسؤلَه، نعم! يطلب من القدير السميع الكريم ومن العليم البصير الرحيم، الـذي يَسمَع أخفى دعاء من أخفى حيوان في أخفى حاجة، إذ يجيبه بقـضاء حاجتـه بالمشاهدة، وكذا يبصر أدنى أملٍ في أدنى ذي حياةٍ في أدنى غايةٍ، إذ يوصله إليها من حيث لا يحتسب بالمشاهدة، ويكرم ويرحم بصورة حكيمة، وبطرز منتظم.لا يبقى ريب في أنّ هذه التربية والتدبير من سميع عليم ومن بصير حكيم."[1]

---

١. الكلمات ٢٦١

وهكذا يتجلى في مظاهر الكون المادية والمعنوية وظائف تـــوزّع المقاصـــد عليها، ويكرّس ذلك النظر في الإنسان نفسه: "إن قلـــت: إنّ الإنـــسان ذرة بالنسبة إلى أرضه، وأرضه ذرة بالنسبة إلى الكائنات. وكذا فرده ذرة إلى نوعه ونوعه ذرة بالنسبة إلى شركائه في الاستفادة في هذا البيت العالي. وكذا جهـــة استفادة البشر بالنسبة إلى فوائد وغايات هذا البيت ذرة، والغايات التي تحسّ بها العقول ذرة بالنسبة إلى فوائده في الحكمة الأزلية والعلم الإلهي، فكيف جعـــل العالم مخلوقاً لأجل البشر واستفادته علة غائية".[1]

وتوزّع المقاصد يقرر حقيقة المدد المتكامل والشامل للجزئيات في الإطـــار الكلي الشامل الكون، والأمثلة على ذلك أكبر من أن تحصى، منها قول بـــديع الزمان: "إذا كان العذاب شديداً ومؤثراً مع هذه القلّة، فكيف يكـــون هـــول العقاب الإلهي؟ فتأمل في الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فـــيُعين كلٌ الآخر، فكلٌ يمد المقصد بجهته الخاصة."[2]

---

١. إشارات الإعجاز ١٦٢

٢. الكلمات ٤٤٢،٧١٩